بسم الله الرحمن الرحيم

قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين

صدق الله العظيم

مكتبة البحث
قسم الدوريات

حولية كلية الشريعة والدراسات الإسلامية

غير مصرح بإعارته من المكتبة

العدد الأول

١٤٠١هـ - ١٩٨٠م

مبادئ وقيم للتعليم

في ضوء السنة العاطرة

الأستاذ الدكتور

يوسف القرضاوي

« إن الله لم يبعثني معنتاً ولا متعنتاً ، ولكن بعثني معلماً ميسراً »(١)

السنة النبوية ـ بما تضمنته من أقوال وأفعال وتقريرات للرسول الكريم ـ هى المصدر الثاني للإسلام ، الذي أكرمنا الله به ، وأتم به النعمة علينا ، ورضيه لنا ديناً .

وليست السنة مصدراً للتشريع فحسب ، كما يظن الكثيرون ، وإنما هي ـ إلى جوار ذلك ـ مصدر للتربية والتوجيه والهداية للإنسان في شئون حياته كلها ، روحية ومادية ، فردية واجتماعية ، دينية ودنيوية .

وإذا كان القرآن الكريم هو الدستور الأساسي الجامع لأحكام الإسلام ووصياه ،فإن السنة المشرفة هي الشرح النظري ، والتطبيق العملي للقرآن ، فلا يمكن أن يفهم الإسلام عامة ، ولا القرآن خاصة بغير السنة ، وفي ذلك يقول القرآن نفسه :

(وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم ، ولعلهم يتفكرون) .

---

(١) حديث شريف . رواه الامام مسلم .

وتقـــول عائشة أم المؤمنين وقد سئلت عن خلق النبي ﷺ : « كان خلقه القرآن » .

فالسنة تمثل — مع القرآن — منهجاً متكاملاً للحياة ، يصحب الإنسان من المهـــد إلى اللحـــد ، بل مما قبل المهـــد ، وما بعد اللحـــد ؛ لأن للجنين قبل أن يولد أحكاماً وتوجيهات ، وللميت بعد أن يموت أحكاماً وتوجيهات .

ومن حق السنة على أهل العلم والفكر من المسلمين في عصرنا أن يكشفوا عما في كنوزها المخبوءة من جواهر المعرفة ، وما في بحارها العميقة من لآلئ الحكمة ، ويعرضوا ما تزخر به كتبها من جوامع الهداية ، وروائع التوجيه ، ومعاني الحق والخير ، بجانب ما فيها من بدائع التشريع ، عرضاً يلائم عقلية هذا العصر وأسلوبه ، حتى يتم البيان المنوط بأصحاب الرسالات ، والمشار إليه في قوله تعالى :

(وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم) .

فاللسان هنا — كما يبدو لي — لا يعني اللغة فقط ، بل يشمل العقلية والأسلوب . فلا ينبغي أن يخاطب الحضري مخاطبة البدوي ، ولا يواجه المثقف مواجهة الأمي ، ولا يكلم الناس في القرن الخامس عشر الهجري بأسلوب أهل القرن الثاني عشر مثلاً ، فلكل قوم لسان ولكل مقام مقال .

ومن ثم حرصت هنا أن أعرض لموقف السنة من « التعليم » وما أرسته في شأنه من قواعد ، وما غرسته من مبادئ وقيم ، سبقت بها القرون ، وتخطت بها الزمن ، حتى ليحسب بعض الناس أن هذه القيم والمبادئ من ثمار هذا العصر ، وهي قيم إسلامية أصيلة جاء بها رسول الله ﷺ منذ أربعة عشر قرناً من الزمان .

وسنتحدث في هذا البحث عن أهم هذه القيم أو المبادئ التي فصلتها السنّة ، وعني بها الصحابة وسلف الأمة ، عسى أن تعود للأجيال الجديدة الثقة بدينها وتراثها ، ويعرفوا من حياتهم وفكرهم ما هـــو أصيل وما هو دخيل ، وعسى أن يسيروا على ما ســـار عليـــه أوائلهم من النهوض بالعـــلم ، وإعـــلاء صرح التربيـــة على تقـــوى من الله ورضوان .

نبـني كمـا كانـت أوائلنـا تبـني ، ونفعـل مثلمـا فعـلوا

وأولى هـذه القـيم الأصيلة :

١ ـ العنايـة بالمعـلم والتنويـه بقـدره :

العنـاية بشأن المعلم ، والإشادة بمنزلته والتنويه بمكانته ، فهو يقوم مقام رسول الله ﷺ في هداية الخلق إلى الحق ، وتعليمهم ما ينفعهم في أولاهم وأخراهم .

إن المعـلم هو العنصر الفعال في عملية التعـليم ، فعلى قدر ما يحمل في رأسه من علم وفكر ، وما يحمل في قلبه من إيمـان برسالته ، ومحبة لتلاميذه ، وما أوتي من موهبة وخبرة في حسن طريقة التعليم ، يكون نجاحه وأثره في أبنائه وطـلابه .

وكثيراً ما كان المعلم الصالح عوضاً عن ضعف المنهج وضعف الكتاب ، وكثيراً ما كان هو المنهج والكتاب معا .

ومن هنا كانت عناية النبي ﷺ بالمعلم ، وتنويهه برسالته ، وما لها من شأن عند الله ، وعند المخلوقات كلها ، فهو مشغول بمهمته ، وهي مشغولة بالاستغفار له .

يقول رسول الله ﷺ : « إن الله وملائكته ، وأهل السموات والأرض ، حتّى النملة في جحرها ، وحتّى الحوت ، ليصلون على معلمي الناس الخـير » (١)

وأي فضل أعظم من أن تشتغل هذه المخلوقات المبرأة من الذنوب ــ في السماء والأرض ــ بالصلاة والدعاء لمن يعلم الناس الخـير ؟! .

ويقـول عليه الصلاة والسلام : « لا حسد إلا في اثنتين : رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق ، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها » (٢) .

والحسد هنا معناه : الغبطة ، وكيف لا يغبط الغني الشاكر ، والعـالم المعـلم ؟

(١) رواه الترمزي في كتـاب العلم برقم ٢٦٨٦ من حديث أبي أمامة وقال : حـديث حسـن .

(٢) رواه البخاري ومسلم من حديث ابن مسعود كما في الترغيب ١٢١ .

بل جاء الحديث أن الصدقة بتعليم العلم أفضل من الصدقة بإيتاء المـــال ؛ فعن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : « أفضل الصدقة أن يتعلم المرء علماً ثم يعلمه أخاه المسلم » (١) .

وروي عنه ﷺ حديث آخر يقول : « ما من رجل مسلم تعلم كلمة أو كلمتين أو ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً مما فرض الله عز وجل ، فيتعلمهن ويعلمهن إلا دخل الجنة » (٢) .

قل أبو هريرة : فما نسيت حديثا بعد اذ سمعتهن من رسول الله ﷺ .

ويكفي المعلم فضلاً أن له أجراً بمقـــدار من ينتفع بعلمه ، ويهتدي به من الناس ، قربوا أو بعـــدوا . قلوا أو كثروا .

يقول ﷺ : « من دلّ على خـــير فله مثل أجر فاعله » (٣) .

ويقول : « من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا . ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً » .

وإذا كان ﷺ يقول : « لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من الدنيا وما فيها » فكيف بمن هدى الله به أفراداً وجماعات يؤجر كلما أجروا ؟

وروى أبو موسى عنه ﷺ قال : « مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً ، فكان منها طائفة طيبة قبلت الماء ، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير .

وكان منها أجادب أمسكت الماء ، فنفع الله بها الناس ، فشربوا منها وسقوا وزرعوا .

وأصاب طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ .

فذلك مثل من فقه في دين الله تعالى ، ونفعه ما بعثني الله به ، فعلم وعلّم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به » (٤) .

---

(١) رواه ابن ماجه بإسناد حسن عن طريق الحسن عن أبي هريرة . الترغيب ١٢٠ .

(٢) رواه أبو نعيم وإسناده حسن ، لو صح سماع الحسن عن أبي هريرة . الترغيب ١١٩ .

(٣) رواه مسلم وأبو داود والترمذي – ترغيب ١٩٤ .

(٤) رواه البخـــاري ومسلم من حديث أبي موسى .

والحديث يشبه علم النبوة بالغيث ، بجامع الإحياء في كل منهما ، فالغيث يحيي الأرض بعد موتها ، والعلم يحيي العقول والقلوب بعد جهلهـــا .

وشأن النـــاس مع العـــلم والهـــدى كشأن الأرض مع الغيث والمطـــر .

فهنـــاك أرض تشرب الماء فتحيا به وتنبت الكلأ والعشب الكثير ، ويشبهها من حملة العـــلم من جمعوا بين الرواية والدراية من العلماء الدعاة المعلمين ، فهم ينتفعون وينفعون .

وهنـــاك أرض تحفظ الماء ، كأنما هي أحواض مبنية لجمع الماء لئلا يتسرب ويذهب سدى ، فهي تمسكه ليشرب منه من يشرب ، أو يسقي ويزرع ، ويشبهها من أهـــل العلم الرواة الحفظة النقلة ، الذين يحملون العلم لغيرهم ، وإن لم يكن لهم فيه كبير فهم أو استنباط .

وأرض ثالثة سبخة رديئة ، لا تنتفع بالماء لنفسها ، ولا تمسكه لغيرها ، ويشبهها أولئك الذين أعرضوا عن العلم والهدى ، فلا ينتفعون ولا ينفعون ، ولا يحفظون ولا يفهمون ، فلا هم في أهل الرواية ، ولا في أهل الدراية (١) .

فالعـــالم العامل المعلم هو وارث النبوة حقاً ، وقد روى عن المسيح عليه السلام قوله : « من علم وعمل وعلّم فذلك يدعى عظيما في ملكوت السماوات »

وكان السلف إنما يسمّون الرجل « ربانيّا » إذا علم وعمل بعلمه ، إشارة إلى قول الله تعـــالى :

﴿ ولكن كونوا ربّانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون ﴾ (٢) .

وناهي المعلم شرفاً وفضلاً أن رسول الله وخيرته من خلقه سمى نفسه « معلما » فعن ابن عمر أن رسول الله ﷺ مر بمجلسين في مسجده : أحد المجلسين يدعون الله ويرغبون إليه ، والآخر يتعلمون الفقه ويعلمونه . قال : « كلا المجلسين على خير ، وأحدهما أفضل من صاحبه : أما هؤلاء فيدعون الله ويرغبون إليه ، فإن شاء أعطاهم وإن شاء منعهم ، وأما هؤلاء فيتعلمون الفقه والعلم ويعلمون الجاهل ، فهؤلاء أفضل ، وإنما بعثت معلماً ، ثم جلس فيهم » (٣) .

(١) لابن القيم كلام جديد في هذا الحديث في كتابه مفتاح دار السعادة جـ ١ / ٦٠ فليراجع .

(٢) سورة آل عمران . الآية ٧٩ .

(٣) أخرجه الدارمي جـ ١ / ٧٤ بتحقيق السيد عبد الله هاشم يمـــاني ، وأبو داود الطيالسي ١/ ٣٦ والبغوي ١ / ٢٧٤ – ٢٧٥ ، وفي إسناده عبد الرحمن بن زياد بن أنعم الأفريقي ، وهو ضعيف .

وقد ضعف سند هذا الحديث ولكن يشهد له الحديث الصحيح الذي رواه مسلم : « إن الله لم يبعثني معنتاً ولا متعنتاً ، ولكن بعثني معلماً ميسراً » (١) .

بل يشهد له القرآن ذاته ، فقد وصف الله تعالى نبيه – عليه الصلاة والسلام – في أربع آيات(٢) بأن من وظيفته الأساسية أن يعلم أمته الكتاب والحكمة .

٢ – تكافل المجتمع في تعليم أبنائه :

وينبغي لمن علم علما أن يبدأ بتعليمه لأقرب الناس إليه ، ثم من يليهم ، ثم من بعدهم ، وهكذا ، كما بدأ في النفقة : « ابدأ بمن تعول » (٣) .

وعن علي رضي الله عنه في قوله تعالى :

﴿ يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا ﴾ قال : علّموا أهليكم الخير (٤) .

وقال تعالى :

﴿ وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقاً نحن نرزقك والعاقبة للتقوى ﴾ (٥) .

وفي الحديث : « ما نحل والد ولده نحلا أفضل من أدب حسن » (٦) .

ويأتي بعد حق الأهل والولد والأقارب حق الجيران ، وللجار في الإسلام حق أكيد على جاره أوصى به جبريل النبي ﷺ ، وأوصى به النبي أصحابه ، وما زال يوصيهم به حتى ظنوا أنه سيورثه .

---

(١) رواه مسلم في كتاب الطلاق من صحيحه حديث ١٤٧٨ ، ورواه أيضاً أحمد والنسائي كما في تفسير ابن كثير جـ ٣ / ٤٨١ .

(٢) اثنتان منها في سورة البقرة ، وواحدة في آل عمران ، وأخرى في الجمعة .

(٣) رواه الطبراني عن حكيم بن حزام ، ورمز السيوطي لصحته في الجامع الصغير .

(٤) رواه الحاكم موقوفاً ، وقال صحيح على شرط مسلم – ترغيب ١٩٨ .

(٥) سورة طه . الآية ١٣٢ .

(٦) رواه الترمذي من حديث عمرو بن سعيد وقال : حسن غريب مرسل ، والحاكم وصححه ، ورده الذهبي – الفيض جـ ٥ / ٥٠٣ .

وبعد الأهل والولد يأتي حق الخدم وإن كانوا رقيقاً ، فينبغي لسيد البيت ألا يبخل بتعليمهم ما لهم وما عليهم . فقد أصبحوا جزءاً من الأُسرة . إن أحسنوا فلأنفسهم ولها ، وإن أساءوا فعلى أنفسهم وعليها .

روي البخاري في باب « تعليم الرجل أمته وأهله » حديث أبي موسى أن النبي ﷺ قال : ثلاثة لهم أجران : رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه ، وآمن بمحمد ﷺ ، والعبد المملوك إذا أدى حق الله وحق مواليه ، ورجل كانت عنده أمة ، فأدبها فأحسن تأديبها ، وعلمها فأحسن تعليمها ، ثم أعتقها فتزوجها ، فله أجران » .

والأجر الأول لصاحب الأمة إنما هو على حسن تأديبها وتعليمها ، والأجر الثاني على اعتاقها وتزوجها .

وقد انتهت هذه الوصايا النبوية المؤكدة – إلى جوار ما في القرآن – بأن جعلت كل مجموعة سكنية – قرية من القرى أو حي من الأحياء – وحدة مترابطة متكافلة في السرّاء والضرّاء ، في المجال المادي ، وفي المجال المعنوي على السواء .

و في المجال المادي أو الاقتصادي يأبي النبي ﷺ أن يقبل في محيط أهل الإيمان من ينعم بالخير والرخاء لنفسه مغفلاً أمر جيرانه ، فيقول : « ليس بمؤمن – وفي رواية : ليس منا – من بات شبعان وجاره إلى جنبه جائع وهو يعلم »(١) .

وفي المجال العقلي أو المعنوي يفرض على الجيران الذين رزقوا حظاً من العلم ألا يدعوا جيرانهم الذين لم يتح لهم أن يستنيروا بنور العلم دون أن يفقهوهم ، ويؤدوا إليهم زكاة علمهم ، كما يؤدون اليهم زكاة أموالهم .

وقد رويت في ذلك قصة جديرة أن تسجل وتروى :

عن علقمة بن سعيد بن عبد الرحمن بن أبزى عن أبيه عن جده قال : خطب رسول الله ﷺ ذات يوم فأثنى على طوائف من المسلمين خيرا ، ثم قال : « ما بال أقوام لا يفقهون جيرانهم ، ولا يعلمونهم ، ولا يعظونهم ، ولا يأمرونهم ، ولا ينهونهم ؟

(١) رواه البزار والطبراني بإسناد حسن – الفيض ج ٥ / ٤٠٧ .

وما بال أقوام لا يتعلمون من جيرانهم ، ولا يتفقهون ولا يتعظون ؟ ! .

والله ليعلمن قوم جيرانهم ، ويفقهونهم ، ويعظونهم ، ويأمرونهم وينهونهم ، وليتعلمن قوم من جيرانهم ، ويتفقهون ، ويتعظون ، أو لأعاجلنهم العقوبة ، ثم نزل .

فقال قوم : من ترونه عنى بهؤلاء ؟ قال : الأشعريين . هم قوم فقهاء ، ولهم جيران جفاة من أهل المياه والأعراب .

فبلغ ذلك الأشعريين ، فأتوا رسول الله -عليه الصلاة والسلام- فقالوا : يا رسول الله ، ذكرت قوماً بخير ، وذكرتنا بشر فما بالنا ؟ فقال : « ليعلمن قوم جيرانهم ، وليعظنهم ، وليأمرنهم ولينهونهم ، وليتعلمن قوم من جيرانهم ، ويتعظون ، ويتفقهون ، أو لأعاجلنهم العقوبة في الدنيا » فقالوا : يا رسول الله أنفطن غيرنا ؟ فأعاد قوله عليهم ، فأعادوا قولهم : أنفطن غيرنا ؟ فقال ذلك أيضاً ، فقالوا : أمهلنا سنة فأمهلهم سنة ليفقهوهم ، ويعلموهم ، ويعظوهم (١) ثم قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية :

(لُعِنَ الذين كفروا من بني اسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم . . .) (٢) .

ويعلق المرحوم الدكتور مصطفى السباعي على هذا الحديث فيقول :

وإنك لترى في هذا الحديث من الحقائق ما يجدر التنبيه إليها :

١ - فالرسول - عليه السلام - لم يقر قوماً على الجهالة بجانب قوم متعلمين .

٢ - واعتبر بقاء الجاهلين على جهلهم ، وامتناع المتعلمين عن تعليمهم عصياناً لأوامر الله وشريعته .

٣ - واعتبر ذلك أيضاً « عدوانا » ، و « منكرا » يوجبان اللعنة والعذاب .

٤ - وأعلن الحرب والعقوبة على الفريقين حتى يبادروا إلى التعلم والتعليم .

٥ - وأعطاهم لذلك مهلة عام واحد للقضاء على آثار الجهالة فيما بينهم .

٦ - ولئن كانت الحادثة قد وردت بشأن الأشعريين العلماء وجيرانهم الجهلاء ، فإن الرسول أعلن ذلك المبدأ بصفة عامة ، لا بخصوص الأشعريين وحدهم ، بدليل

---

(١) وفي نسخة : « يفقهونهم ، ويعلمونهم ، ويعظونهم » .

(٢) رواه الطبراني في الكبير عن بكير بن معروف بن علقمة ، والآية من سورة المائدة رقم ٧٨ .

أن الأشعريين لما جاءوا يسألونه عن سر تخصيصهم بهذا الإنكار – كما فهم الناس – لم يقل لهم : أنتم المرادون بذلك ، بل أعاد القول العام الذي سلف ، ثلاث مرات دون أن يخصصه بالأشعريين ، إشعاراً بأن القضية قضية مبدأ عام غير مخصوص بفئة ولا عصر معين » اهـ .

٣ – الترحيب بالمتعلم والبشاشة له :

ومن القيم التربوية الجليلة : ما سنّه الرسول ﷺ للمعلم من آداب ينبغي أن ترعى مع المتعلم ، حتّى يؤتي التعليم أحسن الثمرات :

وأول آداب المعلم مع المتعلم أن يهش له ، ويبش في وجهه ، ويظهر له البشر والابتهاج ، ويعلن عن الترحيب به ، حتّى تزول عنه الوحشة ، وتنحل من نفسه العقدة ، عقدة الخوف من المعلم ، والرهبة من العلم .

وهذا ما كان يفعله النبي ﷺ وأصحابه من بعده .

عن قيس بن كثير ، قال : « قدم رجل من المدينة إلى أبي الدرداء – رضي الله عنه – وهو بدمشق ، فقال : ما أقدمك أي أخي ؟ قال : حديث بلغني انك تحدث به عن رسول الله ﷺ قال : أما قدمت لتجارة ؟ قال : لا . قال : أما قدمت لحاجة ؟ قال : لا . قال : ما قدمت إلا في طلب هذا الحديث ؟ قال : نعم . قال : فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من سلك طريقاً يطلب فيه علماً سلك الله به طريقاً إلى الجنّة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم ... الحديث » (١) .

وعن صفوان بن عسال المرادى – رضي الله عنه – قال : أتيت النبي ﷺ وهو في المسجد متكئا على برد له أحمر ، فقلت له : يا رسول الله ، إني جئت أطلب العلم ، فقال : « مرحباً بطالب العلم ! إن طالب العلم تحفه الملائكة بأجنحتها ، ثم يركب بعضهم بعضا حتّى يبلغوا السماء الدنيا من محبتهم لما يطلب » (٢) .

(١) الحديث قد تقدم ، وهذه الرواية عند أحمد في مسنده . انظر : الفتح الرباني جـ ١ ص ١٤٩ حديث ١٣ من كتاب العلم .

(٢) رواه أحمد والطبراني بإسناد جيد واللفظ له ، وابن حبان في صحيحه ، والحاكم ، وقال : صحيح الإسناد . وروى ابن ماجه نحوه باختصار . ترغيب . حديث ١٠٨ .

وهكذا كان موقف صفوان ممن يجيئه يطلب منه العلم ويسمع الحديث ، فهو يرحب به ويبشره بما بشره به من قبل النبي ﷺ .

وعن أبي سعيد أن النبي ﷺ قال : « سيأتيكم أقوام يطلبون العلم ، فإذا رأيتموهم فقولوا لهم : مرحبا بوصية رسول الله ﷺ وافتوهم » (١) وفي رواية « واقنوهم » أي ارضوهم وأعينوهم .

وكان أبو سعيد إذا جاءه طلاب العلم قال : « مرحبا بوصية رسول الله ﷺ » (٢) .

ودرج الصحابة ومن بعدهم على قبول وصيته ـ عليه الصلاة والسلام ـ في الترحيب بالمتعلمين وتكريمهم وإعانتهم أدبياً ومادياً على الاستمرار في طلبهم للعلم .

وكان ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ يقول ـ إذا رأى الشباب يطلبون العلم ـ : « مرحباً بينابيع الحكمة ، ومصابيح الظلم ، خلقان الثياب ، جدد القلوب ، حبس البيوت ، ريحان كل قبيلة ! » (٣) .

وكان أبو حنيفة يكثر مجالسة طلبته ، ويخصهم بمزيد الإكرام ، وصرف العناية في التكريم .

وكان البويطي يدنيهم ويقربهم ، ويحضهم على الاشتغال ، ويعاملهم بأشرف الأحوال(٤) .

٤ ـ الرفق بالمتعلم والحنوّ عليه :

ومن أدب المعلم في الإسلام أن يرفق بالمتعلم ويأخذ بيده ، ويعامله معاملة الأب لولده ، مقتدياً بالمعلم الأول ، رسول الله ﷺ ، الذي وصفه الله بقوله تعالى :

(لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم) (٥) .

(١) رواه ابن ماجة والطيالسي والديلمي ، ورمز السيوطي لحسنه في الجامع الصغير ـ الفيض ج ٤ حديث ٤٧٣٣ .
(٢) رواه الحاكم في المستدرك ج ١ / ١٨٠ وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي .
(٣) جامع بيان العلم ج ١ / ٩٢ .
(٤) فيض القدير ج ٤ / ١١٧ .
(٥) سورة التوبة . الآية ١٢٨ .

والذي وصف نفسه فقال : « إنما أنا لكم مثل الوالد لولده » (١) .

وأهم ما يميّز علاقة الأبوة بالبنوّة هو الرحمة والرفق والحنوّ ، وهذا ما ينبغي أن يحس به التلميذ من أُستاذه ، ويشعر بحبه له ، وحرصه على نجاته وسعادته في الأولى والآخرة ، ويغرس الحب والأُخوة بين طلابه ، كما يغرس الأب المحبة بين أبنائه ، حتى يحب بعضهم بعضا ، ويعاون بعضهم بعضا ، ويعطف بعضهم على بعض ، ولا يتنابزوا ويتحاسدوا . وكذلك كان علماء السلف في علاقتهم بتلاميذهم .

يقول أمير المؤمنين في الحديث « سفيان الثوري » : « والله لو لم يأتوني لأتيتهم في بيوتهم » يعني أصحاب الحديث(٢) .

وقال الربيع بن سليمان : قال لي الشافعي : « يا ربيع ، لو قدرت أن اطعمك العلم لأطعمتك إياه » ! (٣) .

وقال الربيع : كان الشافعي — رحمه الله — يملي علينا في صحن المسجد فلحقته الشمس ، فمر به بعض اخوانه ، فقال : يا أبا عبد الله ، في الشمس ؟ !

فأنشأ الشافعي يقول (٤) :

أهين لهم نفس لأكرمهم بها ... ولن تكرم النفس التي لا تهينها

ومن دلائل هذا الرفق أن يتبنى روح التيسير لا التعسير ، والتبشير لا التنفير ، وهذا ما أوصى به النبي ﷺ من بعثه من أصحابه معلمين وهداة وقضاة ، مثل معاذ بن جبل ، وأبي موسى الأشعري حيث قال لهما — وقد بعثهما إلى اليمن — : « يسرا ولا تعسرا وبشرا ولا تنفرا » (٥) .

(١) قال في تخريج الأحياء : اخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجه وابن حبان من حديث أبي هريرة .

(٢) متفق عليه .

(٣ ، ٤) روى هذه الآثار ابن عبد البر في كتاب العلم ج ١ / ١٤٢ .

(٥) متفق عليه .

وفي حديث آخر : « علّموا ويسّروا ولا تعسّروا ، وبشروا ولا تنفروا ، وإذا غضب أحدكم فليسكت » (١) .

وفي آخر : « علموا ولا تعنفوا ، فإن المعلم خير من المعنف » (٢) .

وذلك أن الله يريد بعباده اليسر ولا يريد بهم العسر ، وهو يحب الرفق في الأمر كله ، ويجزى على الرفق مالا يجزى على العنف ، وما دخل الرفق في شيء إلا زانه ، ولا دخل العنف في شيء إلا شانه . وأحق الأشياء بالرفق التعليم ؛ فعلى العلماء – كما قال الماوردي – ألا يعنفوا متعلماً ، ولا يحتقروا ناشئا ، ولا يستصغروا مبتدئا ، فإن ذلك أدعى إليهم ، وأعطف عليهم ، وأحث على الرغبة فيما لديهم (٣) .

وكان النبي ﷺ ، أرفق الناس بالمتعلمين ، وأبعدهم عن التشديد والتعسير ، والفظاظة والغلظة ، وهذا ما نوّه به القرآن من أخلاقه ﷺ : **(فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك ، فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر)** (٤) .

وكان الرجل يأتي من البادية ، يخاطبه باسمه مجرداً ، ويناديه من بعد ، ويكلمه بجفوة ، وأحياناً يستوقفه في الطريق ، فيسع هذا كله بحلمه وحسن خلقه ويجيبه عما سأل ، وأكثر مما سأل ، وقد يهمّ أصحابه به ، أو يثورون في وجهه ، فيهدئ من ثورتهم ، ويسكن من غضبهم .

عن أبي أيوب : أن أعرابياً عرض لرسول الله ﷺ ، وهو في سفره ، فأخذ بخطام ناقته – أو بزمامها – ثم قال : « يا رسول الله – أو يا محمد – أخبرني بما يقربني من الجنة ، ويباعدني من النار » . قال : فكف النبي ﷺ ، ثم نظر في أصحابه ثم قال : « لقد وفّق ، – أو لقد هدى – قال : كيف قلت ؟ فأعادها ، فقال النبي ﷺ : تعبد الله ولا تشرك به شيئا،

(١) رواه أحمد والبخاري في الأدب المفرد من حديث ابن عباس ورمز السيوطي لصحته واعترض المناوي بأن به ليث بن أبي سليم وهو مدلس ، ولم يخرج له مسلم إلا مقروناً بغيره – الفيض ج ٤ / ٣٢٨ حديث ٥٤٨٠ .

(٢) أخرجه الحارث بن أبي أسامة في مسنده ، وابن عرس والبيهقي في الشعب ، وفيه راو منكر الحديث ، لكن الزركشي جعل من شواهده حديث أبي موسى : « يسرا ولا تعسرا » .

(٣) فيض القدير ج ٤ / ٣٢٨ .

(٤) سورة آل عمران . الآية : ١٥٩ .

وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة ، وتصل الرحم . دع الناقة » (١) .

وسيأتي مزيد من صور الرفق في الاشفاق على المخطئ .

التعليم والضرب :

وقد تثار هنا قضية الضرب واستخدام العصا في التعليم ، وخصوصاً بالنسبة للصغار ، والتربويون في عصرنا ينكرون الضرب على الإطلاق .

والواقع أن الضرب في الأصل ينبغي أن يمنع ؛ لأنه ينافي الرفق الذي تحدثنا عنه .

وقدوتنا في هذا معلمنا الأول رسول الله ﷺ ، فقد روى عنه خادمه أنس : « أنه ﷺ ما ضرب بيده شيئاً قط : لا امرأة ، ولا خادماً ، ولا دابّة » (٢) .

ولم يشرع الإسلام ضرب الصغار إلا في موضع واحد جاء به الحديث في تعويد الأبناء الصلاة قبل البلوغ ، حتى يشبوا على أدائها ورعايتها : « مروهم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين ، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر سنين » .

وهنا نلحظ أنه لم يجز الضرب في سن الطفولة المبكرة ، بل في سن العاشرة ، ولم يجزه إلا بعد الأمر والدعوة والترغيب لمدة ثلاث سنين .

وإنما شرع الضرب في هذه الحال ؛ لإشعار الولد بجدية الأمر ، وحرص الأب ، وأهمية المطلوب منه ، وعدم التهاون فيه .

فإن بعض الآباء قد يكتفي بكلمة عابرة يقولها للولد : « صل يا بني » ، ثم لا يحاسبه بعد ذلك ؛ صلى أم لم يصل ! ! استجاب لأمر أبيه أم جعله دبر أذنيه ! .

وكما أن الأب الحازم لا يرضى أن يهمل ابنه أمره في شئون الدنيا ، فأحرى به أن يكون هذا موقفه مع ولده في شأن الدين ، بل هو أهم وأولى !

ومنزلة المعلم منزلة الأب ، فيجوز له ما يجوز للأب في بعض الأحيان ، على أن يكون هذا استثناء من القاعدة الأصلية ، وأن يكون ذلك ضرورة تقدر بقدرها .

---

(١) رواه البخاري ومسلم واللفظ له . ترغيب ٣٦٣٥ .

(٢) رواه البخاري وغيره .

وكما قال ﷺ في شأن الأزواج : « لن يضرب خياركم » فهذا يقال للآباء والمعلمين أيضاً : لن يضرب خياركم .

٥ ـ الاشـــفاق على المخطيء :

ويتجلى الرفق كل الرفق في الاشفاق على المخطيء . فالخطأ لا يوجب مقابلة المخطيء بالعنف والقهر ، أو التشنيع عليه أو السخرية به ، فإن هذا قد يؤدي به إلى إذلال نفسه ، وتحطيم شخصيته ، وهذا ضرب من القتل المعنوي المذموم دينا وخلقاً ! أو يؤدي به إلى الاصرار على الخطأ ، والتمادي في الباطل ، والتحدي للحق ، دفاعا عن نفسه ، وتبرير الغلط ! وكلا الأمرين شديد الخطر عظيم الضرر ! .

وأعظم نموذج للرفق بالمتعلمين إذا أخطأوا هو رسول الله ﷺ ، فهو خير من يقدر الظروف ، ويراعي الأحوال ، ويسع الناس جميعاً ، حتى ذلك الاعرابي الجلف الذي لم يخجل أن يبول في ركن من المسجد ، مما جعل الصحابة يهجمون عليه ، يقول لهم الرسول : « لا تزرموه ـ أو لا تقطعوا عليه ـ بوله ، وصبوا عليه ذنوبا من ماء ؛ فإنما بعثتم ميسرين ، ولم تبعثوا معسرين » (١) .

راعي بداوة الرجل ونشأته وظروف حياته ، وعرفهم أن علاج الأمر سهل في مسجد لم يكن مفروشاً إلا بالحصباء ، وهو صب دلو من ماء .

وروى أبو أمامة : أن فتى من قريش جاء إلى النبي ﷺ ، فقال : يا رسول الله ، ائذن لي في الزنا ؟ ! فأقبل القوم عليه وزجروه ، فقال ﷺ : ادنه ، فدنا ، فقال : أتحبه لأُمك ؟ قال لا . والله ! جعلنا الله فداك ، قال : ولا الناس يحبونه لأُمهاتهم ، ثم قال له مثل ذلك في ابنته ، واخته ، وعمته وخالته . في كل ذلك يقول : أتحبه لكذا ؟ فيقول : لا والله ! جعلني الله فداك . فيقول ﷺ : ولا الناس يحبونه ، ثم وضع يده عليه وقال : اللهم اغفر ذنبه ، وطهر قلبه ، وحصن فرجه ، فلم يكن بعد ذلك يلتفت إلى شيء » (٢) .

(١) رواه الترمذي عن أبي هريرة .

(٢) رواه أحمد والطبراني في الكبير كما في جمع الفوائد وأعذب الموارد حديث ـ ٢٤٠ .

شاب قوي الشهوة ، ثائر الغريزة ، صريح في التعبير عن نوازعه إلى حد الإغراب والإثارة ، ورغم غرابة طلبه الذي أثار الجالسين عليه ، لم يكن منه – ﷺ – إلا أن لقيه بهذا الرفق العجيب والحوار الهادئ ، الذي يحمل المنطق المقنع والروح المحبب ، ، ثم أنهى هذا الحوار بلمسة حنان على صدر الفتى المتوقد ، ومع اللمسة دعوات خالصة لله تعالى أن يغفر للفتى ويطهره ويحصنه ، فإذا هو يخرج من مجلس الرسول الكريم ، كأنما كان هذا اللقاء لنار شهوته برداً وسلاما ! ! .

ولا تظن – أيها القارئ الكريم – أن هذا الأثر الذي تركه موقف النبي ﷺ في نفس الشاب من هدوء نفس ، وإعراض عن الزنا الذي كان يتوق إليه ويرغب فيه – كان معجزة خارقة للنبي – عليه الصلاة والسلام – لا تتكرر لغيره إلا من باب الكرامات ، وخوارق العادات . كلا ، فإن أي معلم رباني الوجهة ، نبوي الطريقة ، يقتدي برسول الله ﷺ في سلوكه : قولا ، وعملا ، وروحا ، سيجد بتوفيق الله تعالى نفس الأثر ، أو قريبـــا منه وفقا لسنة الله تعالى .

وأولى المخطئين بالاشفاق من كان خطأه عن جهل أو غفلة ، أو ضعف ، وبخاصة من أخطأ لأول مرة مثل الأعرابي ، والشاب القرشي السابق ذكرهما .

ولـكن قارئ السنة يجده – عليه الصلاة والسلام – يسع بحلمه ورفقه من أصر على الخطأ والمعصية نتيجة ضعف إرادته ، وغلبة عادته ، استبقاء له في دائرة الإيمـــان ، وفي حظيرة المؤمنين ، وتنبيها له بحسن المعاملة على سوء صنيعه ، عسى أن يستيقظ ضميره فيتوب من زلته ، وينهض من سقطته ! .

وهل نجد مثلا في هذا المجال أوضح من قصة ذلك الصحابي المعروف الذي اشتهر باسمه والذي ولع بالخمر إلى حد الإدمان ، ولم يردعه أن ضرب فيها غير مرة ، حتى قال بعض الصحابة يوماً – وقد ضاق صدره بكثرة ما قبض عليه في هذه الجريمة – : « ما له لعنه الله ؟ ! ما أكثر ما يؤتى به ! » وهنا تتجلي الرحمة المحمدية ، والرفق النبوي الرفيع ، فيقول : « لا تكن عوناً للشيطان على أخيك – أو : لا تكونوا عوناً للشيطان على أخيكم » ، وفي رواية : « لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله » .

تنبيـــه المخطيء على خطئـــه :

وإياك أن تحسب — أخي القاريءْ — أن الرفق بالمخطيءْ يعني السكوت على خطئه والإغضاء عنه ، وفي هذا إقرار للخطأ بل تشجيع وإشاعة له .

كلا ، فالرفق بالمخطيءْ والاشفاق عليه لا ينافي تنبيهه على خطئه ، بل زجره عنه بالرفق المناسب لظروف المخطيءْ ، ومدى خطئه ونوعه ودوافعه ، وإرشاده إلى الصواب ، والوضع الصحيح بالتي هي أحسن .

وقد يكون هذا التنبيه أو الإرشاد أو الزجر ، من باب التعريض لا التصريح ، وبالتعميم لا بالتخصيص ، ويدرك المخطيءْ حين يسمع اللفظ العام أنه المقصود مثل : « ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا ... » ومثل ما ذكروه في قصة من هاجر من مكة إلى المدينة من أجل امرأة يهواها ، وأطلق عليه بعض الصحابه « مهاجر أم قيس » وقالوا : إنه كان سبباً في ورود الحديث المشهور : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه » (١) .

وطورا يكون التنبيه على الخطأ غاية في الرفق ورعاية الشعور كما في قصة أبي بكر ، حين دخل المسجد والنبي ﷺ في الركوع ، فكبر من أول المسجد وركع ، وظـــل يمشي راكعاً حتى وصل الصف ، وكان ينبغي ألا يكبر ويدخل في الصلاة حتى يصل إلى الصف ، ولا يصلي منفردا خلف الصف ، فلما بلغ رسول الله ﷺ فعله قال له هذه الكلمة الطيبة : « زادك الله حرصا ولا تعد » (٢) .

فهذه الجملة الموجزة تتضمن دعاء ونهياً ؛ ففي الدعاء تقدير للدافع الذي دفع الصحابي الكريم إلى ما فعـــله وهو الحرص على ألا تفوته الركعة في الجماعة مع النبي — عليه السلام — وفي النهي إشعار له بخطئه ، لئلا يتكرر منه مرة أخرى دون أن يقول له : قد أخطأت .

وعن معاوية بن الحكم السلمي قال : بينما أنا أُصلي مع رسول الله ﷺ إذ عطس رجل

(١) راجع شرح الحافظ في « الفتح » على الحديث وبيان سبب وروده وهو أول حديث في صحيح البخاري .
(٢) رواه أحمد والبخـــاري وأبو داود والنسائي في الصلاة كما في الجامع الصغير — ٤٥٥١ .

من القوم ، فقلت : يرحمك الله . فرماني القوم بأبصارهم ! فقلت : وا ثكل أماه ! ما شأنكم تنظرون إلي ؟ فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم ، فلما رأيتهم يصمتوني (أي يسكتونني) سكت ، فلما صلى رسول الله ﷺ ، فبأبي هو وأمي ! ما رأيت معلماً قبله ولا بعده أحسن تعليماً منه ! فوالله ما كهرني (أي ما نهرني) ولا ضربني ولا شتمني . قال : « إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس . إنما هي التسبيح والتكبير ، وقراءة القرآن — أو كما قال رسول الله ﷺ — قلت : يا رسول الله ، إني حديث عهد به ، وقد جاء الله بالإسلام ، وإن منا رجالاً يأتون الكهان ؟ قال : فلا تأتهم . قلت : ومنا رجال يتطيرون (يتشاءمون) قال : ذاك شيء يجدونه في صدورهم ، فلا يصدنهم — أي عن وجهتهم » (١) .

فهذا العربي الغفل ، الحديث العهد بالجاهلية ، يدخل الصلاة ويتصرف فيها كأنما هو في مجلس من مجالس القوم : يشمت العاطس ، ويكلم من حوله ، ويرد على من أنكر عليه ، والصحابة يرون هذا منه وينبهونه بنظرات أعينهم وحركات أيديهم ، وهو لا ينتبه إلى خطئه حتى فرغ من صلاته ، وحكوا للنبي ﷺ ما صنعه في صلاته .

وهنا تتجلى روح المعلم الحق ، وأسلوبه الرفيق الرقيق في معالجة الخطأ وتنبيه المخطئين ، وتعليم المبتدئين ، وهو ما لحظه هذا الرجل الأُمي البسيط بنور فطرته ، وعبر عنه بعباراته القوية البليغة : « بأبي هو وأمي ! ما رأيت معلما قبله ولا بعده أحسن تعليماً منه ، فوالله ما كهرني ولا ضربني ولا شتمني » .

كل ما فعله — عليه الصلاة والسلام — أنه نبهه على خطئه دون أن يقول له أخطأت وأسأت ، ولم تعرف للصلاة قدرها ، ونحو ذلك من العبارات القاسية . إنما بين له حقيقة الصلاة وما لا يليق من القول أن يدخل فيها : « إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس . إنما هي التسبيح والتكبير وقراءة القرآن » .

وكذلك يجب أن يكون المعلمون الصادقون ! ! .

وفي قصة تخيير نسائه ﷺ التي نزل بها القرآن في سورة الأحزاب :

(يأيها النبي ، قل لأزواجك : إن كنتن تُرِدْنَ الحياة الدنيا وزينتها فتعالَيْنَ أمتعكن

---

(١) رواه مسلم — حديث — ٥٣٧ .

وأسَرِّحكنُ سراحاً جميلا ، وإن كنتن تُرِدْنَ الله ورسولهَ والدار الآخرة ، فإن الله أعدَّ للمحسناتِ منكن أجراً عظيماً) .

أقبل النبي ﷺ على نسائه يعرض عليهن ما أمره الله به من التخيير ، وبدأ بعائشة — رضي الله عنها — فعرض عليها أن تختار أحد أمرين : إما الله ورسوله والدار الآخرة ، على ما في ذلك من الكفاف ، وحياة التقشف والزهد وخشونة العيش ، وإما الدنيا وزينتها فلها حق المتعة والسراح الجميل ، وطلب إليها أن تتريث في الأمر وألا تقطع فيه برأي حتى تشاور أبويها . وهنا قالت عائشة في حسم ويقين : « أفيك أستأمِر أبوَيّ يا رسول الله ؟ بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة » ثم بدت الطبيعة البشرية النسوية فغلبت على عائشة ، فطلبت منه — عليه الصلاة والسلام — ألا يخبر أحداً من نسائه بما اختارته حتى لا يؤثر موقفها في موقفهن ، كأنما تريد لهن جميعاً أن يخترن الدنيا وزينتها ، وتنفرد هي بهذه المزية ، ويخلو لها وجهه ﷺ وهنا يتجلى المعنى التربوي الكبير في موقفه — عليه الصلاة والسلام — حين قال لها : « يا عائشة ، إن الله لم يبعثني معنتا ، ولا متعنتا ، ولكن بعثني معلما ميسرا » (١)

فلم يقر الصديقة بنت الصديق على نزعتها الأنانية ، وبين لها وظيفته التي لا يتركها ولا تتركه ، وهي : أنه معلم ، ومعلم ميسر ، غير معنت ولا متعنت .

قال العلامة المناوي : « فيه إشعار بأن من دقائق صناعة التعليم : أن يزجر المعلم المتعلم عن سوء الأخلاق باللطف والتعريض ما أمكن من غير تصريح ، وبطريق الرحمة من غير توبيخ ، فإن التصريح يهتك حجاب الهيبة ، ويورث الجرأة على الهجوم بالخلاف ، ويهيج الحرص على الإصرار » .

غير أننا نجد النبي ﷺ يزجر عائشة نفسها على خطأ ارتكبته في موقف آخر ، وكان الزجر بطريقة فيها لون من الشدة يغاير ما ذكرناه سابقاً ؛ وذلك أنها اعتدت على حق ضرة من ضرائرها من أمهات المؤمنين ، فقد قالت للرسول ﷺ : « حسبك من صفية كذا وكذا » . قال بعض الرواة تعني : قصيرة ، فقال : « يا عائشة ، لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته » (٢) .

---

(١) أخرجه مسلم .

(٢) رواه أبو داود والترمذي وقال : حسن صحيح — ترغيب ٤٠٩٢ .

يعني أن هذه الكلمة أو هذه الإشارة التي لم تصل إلى التصريح الكامل جديرة بأن تعكر بحرا ، على عمقه وسعته ، وذلك لما فيها من جرح لشعور صاحبتها لو سمعتها .

وأحيانا يشتد النكير ، ويعلو الصوت بالتنديد ، في غير إسفاف ولا إسراف . وذلك حين لا يكون الخطأ مجرد خطأ في سلوك جزئي فردي ، بل يمثل بداية انحراف في الاتجاه وفي المنهج ، كقوله لعمر — حين رأى معه بعض كتب أهل الكتاب المحرفة — : « أمُتَهَوِّكون — أي أمتحيرون — فيها يا ابن الخطاب ؟ والله لو كان موسى حيًّا ما وسعه إلا أن يتبعني » (١) .

وتشتد اللهجة بالإنكار أكثر وأكثر حينما يتمثل هذا الانحراف في جماعة أو كتلة ، كقوله حينما تنادي الأوس : يا للأوس ! وتنادي الخزرج : يا للخزرج « أبدَعْوى الجاهلية ، وأنا بين أظهركم ؟ ؟ » (٢) .

وقوله للثلاثة الذين قرر أحدهم قيام الليل كله ، والثاني صيام الدهر كله ، والثالث اعتزال النساء أبدا : « اما إني أخشاكم لله ، وأتقاكم له ، ولكني أقوم وأنام ، وأصوم وأفطر ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني » (٣) .

ومثل ذلك ما رواه عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده : أنه ﷺ سمع قوماً يتنازعون في القرآن ، فقال : « إنما هلك من كان قبلكم بهذا ؛ ضربوا كتاب الله بعضه ببعض ، وإنما نزل كتاب الله يصدق بعضه بعضا ، فلا تكذبوا بعضه ببعض ، فما علمتم منه فقولوا ، وما جهلتم فكِلُوه إلى عالمه » (٤) .

وفي بعض الروايات : أن تنازعهم كان في القدر .

وفي بعضها : أنه خرج عليهم كأنما يفقأ في وجهه حب الرمان — أي من شدة الغضب ، وإنما أغضبه التدافع والمراء في القرآن وضرب آياته بعضها ببعض ، فإن هذا بداية فتنة في

(١) رواه أحمد ، كما في ترتيب المسند للشيخ أحمد عبد الرحمن البنا : كتاب العلم رقم ٦٢ ، ونقل في تخريجه عن صاحب « التنقيح » : أن رجاله رجال الحسن ، وهو عند أحمد وابن ماجة عن ابن عباس بإسناد حسن . وعند ابن حبان عن جابر أيضاً بإسناد صحيح « الفتح الرباني : جـ ١ ص ١٧٥ » .

(٢) رواه ابن إسحاق في السيرة .

(٣) رواه البخاري .

(٤) رواه أحمد في مسنده وابن ماجه في سننه .

الفكر والعقيدة لا يعلمها إلا الله ، لأن القرآن أنزله الله ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، ويجمعهم على كلمة سواء ، فإذا أصبح هو مجالا للتنازع والمراء والاختلاف ، فقد أصبح محتاجا إلى حاكم آخر يحسم النزاع ، ويصفي الخلاف . هذا مبتدأ تمزق الأُمم ، وشيوع الانحرافات والأهواء والبدع ! وهذا ما أهلك الأُمم من قبل ، وهو خليق أن يهلك هذه الأُمة من بعد ، ومن ثم كان غضبه وزجره ! ! .

٦ ـ تشجيع المحسن والثناء عليه :

وإذا كان من الأُسس النافعة في التعليم والتربية تسديد المخطئ ، والأخذ بيده في رفق ، فإن مما يكملها تشجيع من أصاب وأحسن ، والإشادة بإحسانه ، والثناء عليه ، ليزداد نشاطاً في الخير وإقبالاً على العلم والعمل ، ويضيف إحساناً إلى إحسان .

كان أبو موسى الأشعري حسن التلاوة للقرآن ، فقال له النبي ﷺ : « لقد أوتيت مزماراً من مزامير آل داود (١) » يعني بآل داود : داود نفسه .

وقال له يوماً : « لو رأيتني وأنا أستمع لقراءتك البارحة ! ـ أي لسرك ذلك ـ فقال أبو موسى : يا رسول الله ، لو أعلم أنك تسمعه لحبرته لك تحبيرا » (٢) .

وعن أُبيّ بن كعب قال : قال رسول الله ﷺ : « يا أبا المنذر ، أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم ؟ قلت : الله لا إله إلا هو الحي القيوم . ـ يعني الآية المعروفة بآية الكرسي ـ فضرب في صدري وقال : ليهنك العلم أبا المنذر » .

ومن قرأ كتاب المناقب أو الفضائل في صحيح البخاري أو صحيح مسلم ، أو غيرهما من كتب الحديث يجد نصوصاً تحمل الثناء على واحد أو جماعة من أصحاب النبي ﷺ ، ولم يكن يلقى النبي ﷺ ما يقوله من كلمات الثناء اعتباطاً ، أو مجاملة ، بل كانت تقديراً لمن يستحق التقدير ، وتكريماً لمن هو أهل التكريم ، كما أثنى على أبي بكر وعمر وعثمان ، وعلى غيرهم من كبار الصحابة في مواقف شتى .

(١) متفق عليه من حديث أبي موسى . انظر : رياض الصالحين حديث ـ ١٠٠٣ .

(٢) رواه مسلم .

وقال لسعد بن أبي وقاص يوم أحد : « ارم فداك أبي وأمي ! » .

وقدم أهل اليمن على رسول الله ﷺ فقالوا : ابعث معنا رجلاً يعلمنا السنة والإسلام . قال : فأخذ بيد أبي عبيدة ، فقال : « هذا أمين هذه الأُمة » .

وقال ﷺ : « خذوا القرآن من أربعة : من ابن أُم عبد – يعني ابن مسعود – ومعاذ بن جبل ، وأُبي بن كعب ، وسالم مولى أبي حذيفة » (١) ، وأثنى على أبي هريرة لما سأله : « من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة ؟ » . وفي حديث اشتهر عنه ذكر عدداً من أصحابه كل بأبرز ما يميزه من الفضائل ، فقال : « أرحم أُمتي مني أبو بكر ، وأشدهم في عمله عمر – وفيه – : أن أقضاهم علي ، وأفرضهم – أي أعلمهم بالفرائض وهي المواريث – وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل (٢) الخ . . . » .

وهكذا كان ﷺ ينوه بأقدار الفضلاء من أصحابه ، وذوي المواهب المتميزة منهم ، ليعرف الناس ذلك لهم ، ويأخذوا عنهم وينتفعوا بهم ، كما ذم النبي ﷺ في حديث (٣) من الأئمة : الذي إن أحسنت لم يشكر ، وإن أسأت لم يغفر ، وإذا كان هذا مذموما في الرؤساء ، فهو مذموم في المعلمين .

وكذلك ينبغي لكل معلم راشد أن يشيد بالمواقف الحسنة لتلاميذه ، وينوه بكل من له موهبة أو قدرة ، لينمي فيه الطموح بالحق ، والتفوق بالعدل ، ولينبه الآخرين على فضلهم ، فينافسوهم في الخير إن استطاعوا ، أو يعترفوا لهم بالفضل إن عجزوا ! وإن كلمة تقدير وتكريم من أُستاذ له قدر في شأن أحدٍ تلاميذه ، قد تصنع منه – بتوفيق الله تعالى – نابغة من نوابغ العلم .

ومن طلاب العلم من أُوتي الموهبة والذكاء والقدرة على الفهم والتحليل والتحصيل ، ولكن تنقصه الثقة بالنفس والأمل في الغد ، فما أحوجه إلى كلمة من أُستاذ مرشد تنفعه وترفعه .

ذكر يوسف بن يعقوب بن الماجشون : أنه كان هو وأخ له وابن عم يطلبون العلم

---

(١) انظر هذه الأحاديث كلها في الصحيحين – كتاب فضائل الصحابة .

(٢) رواه الترمذي .

(٣) رواه الطبراني عن فضاله بن عبيد بإسناد لا بأس به – الترغيب ٣٧٠٥ .

عند ابن شهاب الزهري فقال لهم : « لا تحقروا أنفسكم لحداثة أسنانكم ، فإن عمر بن الخطاب كان إذا نزل به الأمر المعضل دعا الفتيان فاستشارهم ، يبتغي حدة عقولهم (١) .

٧ – التدرج في التعـــليم :

ومن المباديء التي حرص عليها الإسلام في كافة المجالات ، وجاءت بها السنة القولية والعملية : التدرج ، وبخاصة التدرج في التعليم .

وهذا واضح في جانب التكليف والتشريع ، فقد كان التكليف في العهد المكي مقصوراً على أحكام العقيدة ومكارم الأخلاق ، ثم فرضت الصلاة قبيل الهجرة ، وفرضت في أول الأمر ركعتين ركعتين ، ثم اقرت في السفر ، وزيدت في الحضر .

وفي المدينة فرضت بقية الفرائض ، كما حرمت الخمر والربا وغيرها . كل ذلك بمنهج تدرجي حكيم ، يسهل على المكلفين امتثال الأمر واجتناب النهي ، في غير حرج ولا إعنات .

وهكذا كان الرسول الكريم يعلم أصحابه : أن يأخذوا بسنة التدرج ، التي هي سنة الله في الحياة والوجود كله .

عن ابن عباس رضي الله عنه : « أن رسول الله ﷺ لمـــا بعث معـــاذاً إلى اليمن . قال : إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب ، فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله ، وأني رسول الله ، فإن هم أطاعوك لذلك ، فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة ، فإن هم أطاعوك لذلك ، فأعلمهم أن الله فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم ، فترد على فقرائهم . . . الحديث » (٢) فقوله : « تأتي قوماً من أهل الكتاب » كالتوطئة للوصية ، لتستجمع همته عليها ، لكون أهل الكتاب أهل علم في الجملة ، فلا يكون في مخاطبتهم كمخاطبة الجهال من عبدة الأوثان (٣) .

---

(١) جامع بيان العلم جـ ١ / ١٠٢ .

(٢) رواه الجماعة كما في المنتقى وشرحه جـ ٤ / ١٧٠ .

(٣) انظر المصدر السابق .

ثم أمره أن يبدأ دعوته بأمر العقيدة ، فيدعوهم إلى الشهادتين ، لأنهما باب الدخول في الإسلام ، وأصل الدين كله ، ولا تقبل عبادة ولا عمل بغير الإقرار بهما والإذعان لهما .

فإن هم أطاعوا لذلك ورضوا بالله ربا . وبمحمد رسولا ، أعلمهم بالفريضة اليومية والعبادة العملية الأولى التي هي الرباط الدائم بين الإنسان وربه ، والفيصل الفارق بين المسلم والكافر ، وهي الصلاة عمود الإسلام .

فإن هم عرفوا ذلك واستجابوا له ، أعلمهم بالفريضة العملية الثانية ، وهي شقيقة الصلاة في القرآن والسنة ، والرباط الاجتماعي والاقتصادي بين المسلمين بعضهم وبعض وهي الزكاة ، قنطرة الإسلام .

وهكذا ينبغي أن تكون الدعوة ويكون التعليم ! ! .

والتدرج ذو شقين : شق يتعلق بالكم ، وشق يتعلق بالكيف .

فالأول يعني : أن يعطي المتعلم من العلم المقدار الملائم له ، ولا يكثر عليه الأُستاذ ، ويحمله مالا يطيق ، فينوء به ، ويضيعه كله ، فهو يريد أن يعطيه الكثير دفعة واحدة ، فيضيع بذلك الكثير والقليل ، والعلم متين كالدين ، فيجب أن يوغل فيه برفق ؛ فإن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى .

وفي هذا أوصى الزهري تلميذه يونس بن يزيد فقال : « يا يونس لا تكابر العلم ، فإن العلم أودية ، فأيها أخذت فيه قطع بك قبل أن تبلغه ، ولكن خذه مع الأيام والليالي ، ولا تأخذ العلم جملة فإن من رام أخذه جملة ذهب عنه جملة ، ولكن الشيء بعد الشيء مع الأيام والليالي » (١) .

والشيء الثاني في التدرج هو ما يتعلق بالكيف والنوع . على معنى : أن يبدأ الأُستاذ مع طلابه بالجلي من العلم قبل الخفي ، والبسيط قبل المركب ، وبالخفيف قبل الثقيل ، والجزئي قبل الكلي ، وبالعملي قبل النظري .

ومن الحكم المأثورة : الرباني : الذي يربي الناس بصغار العلم قبل كباره ، والمراد

---

(١) جامع بيان العلم جـ ١ / ١٢٥ .

بصغار العلم : ما وضح من مسائله ، وبكباره : ما دق منها . وقيل : يعلمهم جزيئاته قبل كلياته ، أو فروعه قبل أصوله ، أو مقدماته قبل مقاصده (١) .

والمهم ألا يبدأ المعلم تلاميذه بدقائق العلم وعويص مسائله فيغرقهم في بحر عميق لا يستطيعون النجاة منه ، بل يبدؤهم بالأسهل والأيسر ، لأن الشيء إذا كان في ابتدائه سهلاً حبب إلى من يدخل فيه ، وتلقاه بانبساط ، وكانت عاقبته غالباً الازدياد منه بخلاف ضده (٢) .

وقد كان كثير من كبار العلماء يؤلفون كتبهم متدرجة وفق مراتب الترقي في الطلب ؛ فالغزالي – مثلا – يؤلف في فقه الشافعية : « الوجيز » ثم « الوسيط » ثم « المبسوط » ؛ وابن قدامة يؤلف في فقه الحنابلة على الترتيب التصاعدي : « العمدة » ثم « المقنع » ثم « الكافي » ثم « المغني » .

وهكذا كانوا يكتبون لكل مرحلة في الطلب ما يليق بها ؛ فالمبتديء غير المتوسط غير المنتهي .

وكذلك ينبغي أن تراعى مراحل العمر ، فيعطي للصبي غير ما يعطي للمراهق غير ما يعطي للناضج .

وهذا ما يحرص عليه رجال التربية اليوم في وضع المناهج وفي تأليف الكتب .

٨ – رعاية الفروق الفردية :

ومن آداب التعليم ومبادئه وقيمه الأصيلة التي جاءت بها السنة : مراعاة الفروق بين الناس بعضهم وبعض : الفروق الفردية ، أو البيئية ، أو النوعية .

فليس كل ما يصلح لشخص يصلح لآخر ، وليس كل ما يصلح لبيئة يصلح لأخرى ، وليس كل ما يصلح لفئة أو جنس يصلح لغيرها ، وليس كل ما يصلح لزمن يصلح لسائر الأزمنة والعصور .

---

(١) الفتح جـ ١ / ١٧١ .
(٢) نفسه / ١٧٣ .

والمعلم الموفق هو الذي يعطي كل إنسان ــ فردا أو جماعة ــ من العلم ما يلائمه ويصلح له وبالقدر الذي يصلح به ، وفي الوقت الذي ينتفع به .

وكان معلم البشرية الأول خير المراعين لهذا الجانب ، نظراً وتطبيقاً .

ومن الأدلة على اعتبار هذه الفروق ومراعاتها بالفعل عدة أمور :

١ ــ اختلاف وصاياه ﷺ باختلاف الأشخاص الذين طلبوا منه الوصية .
٢ ــ اختلاف أجوبته وفتاواه عن السؤال الواحد باختلاف أحوال السائلين .
٣ ــ اختلاف مواقفه وسلوكه باختلاف الأشخاص الذين يتعامل معهم .
٤ ــ اختلاف أوامره وتكليفاته باختلاف من يكلفهم من الأشخاص واختلاف قدراتهم .
٥ ــ قبوله من بعض الأفراد موقفاً أو سلوكاً لا يقبله من غيره ؛ لاختلاف الظروف .

وفي **البنـــد الأول :** نجـــد أناسا عديدين سألوه ﷺ أن يوصيهم ؛ إما مطلقاً ؛ وإما مقيداً بما يقربهم إلى الجنة ، ويبعدهم عن النار ، أو نحو ذلك من العبارات الجامعة فأوصاهم بوصايا مختلفة :

فبعضهم قال له : « تعبد الله ولا تشرك به شيئا ، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة ، وتصل الرحـــم » .

وبعضهم قال له : « اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة بالحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن » .

وبعضهم قال له : « قل آمنت بالله ثم استقم » .

وبعضهم قال له : « لا تغضب » ولم يزد على ذلك .

وهـــكذا يراعي ﷺ حال المستوصي ، ويعطي كل واحد ما يراه أحوج إليـــه فشأنه مع السائلين كالطبيب مع المرضى ، يصف لكل مريض من الدواء ما يناسبه .

وفي **البنـــد الثاني :** نجـــده ﷺ يسأل : أي العمل أفضل ، أو أي الإســلام أفضل ؟ فتراه يجيب هذا بغير ما يجيب به ذاك .

فعن عبد الله بن مسعود : « سألت رسول الله ﷺ أي الأعمـــال أحب إلى الله ؟

فقال : الصلاة على وقتها . قلت : ثم أي ؟ قال : بر الوالدين . قلت ثم أي ؟ قال : الجهاد في سبيل الله »(١) .

وعن رجل من خثعم قال : أتيت النبي ﷺ وهو في نفر من أصحابه فقلت : « أنت الذي تزعم أنك رسول الله ؟ قال : نعم . قال : قلت : يا رسول الله ، أي الأعمال أحب إلى الله ؟ قال : الإيمان بالله . قلت : يا رسول الله ، ثم مه ؟ — أي ثم ماذا ؟ — قال : ثم صلة الرحم . قال : قلت : يا رسول الله ، ثم مه ؟ : قال : ثم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . . . الحديث » .

ولا تفسير لهذا الاختلاف في الجواب من اتحاد السؤال إلا مراعاة أحوال السائلين ، وما بينهم من فروق يجب اعتبارها .

ولما سأله النساء عن الجهاد . قال : « لكن أفضل الجهاد حج مبرور(٢) » .

وفي صحيح البخاري عن أبي موسى . قال : قالوا : « يا رسول الله ، أي الإسلام أفضل ؟ قال : من سلم المسلمون من لسانه ويده » .

وفيه عن عبد الله بن عمرو : أن رجلاً سأل النبي ﷺ: « أي الإسلام خير ؟ قال : تطعم الطعام ، وتقرأ السلام على من عرفت ، ومن لم تعرف » (٣) .

والسؤال الثاني كالأول وإن اختلفت الألفاظ ، ولكن الجواب ليس واحداً ؛ لما قلنا من اختلاف أحوال السائلين ، أو السامعين ؛ فالجواب في السؤال الأول وجه العناية إلى تحذير من خشي منه الإيذاء بيد أو لسان ، فأرشد إلى كفهما عن الأذى ؛ وفي الثاني كان الاهتمام بترغيب من رجا فيه النفع العام بالفعل والقول فأرشد إليهما ، وخص الخصلتين المذكورتين بالتنويه ؛ لمسيس الحاجة إليهما في ذلك الوقت ؛ لما كانوا فيه من الجهد والفاقة ، ولمصلحة تأليف القلوب(٤) .

وأوضح من ذلك اختلاف الجواب عن السؤال الواحد في قضية واحدة في مجلس واحد ،

---

(١) رواه البخاري ومسلم كما في الترغيب حديث — ٣٥٨٢ .

(٢ ، ٣) الحديثان ذكرهما البخاري في .

(٤) الفتح ج ١ / ٦٢ .

فقـد روى الإمام أحمد في سفـره عن حديث عبد الله بن عمرو بن العاص قال : «كنـا عنـد النبي ﷺ فجـاء شاب ، فقال : يا رسول الله ، أقبّل وأنا صائم ؟ فقال : لا . فجاء شيخ فقال : يا رسول الله ، أقبل وأنا صائم ؟ قال : نعم . فنظر بعضنا إلى بعض ! فقال رسول الله ﷺ : قد علمت نظر بعضكم إلى بعض ، إن الشيخ يملك نفسه » (١) .

وهـذا من الأدلة الشرعية لما قرره العلماء من تغير الفتوى بتغير الأحوال .

وفي **البنـد الثالث** : نجده ﷺ يعامـل الأعراب القادمين من البادية بمـا لا يعامل به أصحابه الذين ربوا في حجر النبوة ، ويغتفر لأولئك مالا يغتفر لهؤلاء ، ويتألف قلوب « مسلمة الفتح » وزعماء القبائل بما لا يصنع مثله مع المهاجرين والأنصار ، ويعامل أصحابه أيضاً على منازلهم وطبائعم ، فهو يغطي فخذيه أو ساقيه ، ويسوي ثيابه عند دخول عثمان عليه ، ولم يفعل ذلك مع أبي بكر وعمر ، مراعياً طبع الحياء في عثمان قائلاً : « ألا استحي من رجل تستحي منه الملائكة ؟ » وقد لاحظت عائشة ذلك ، فقالت : « يا رسول الله ، مالى لم أرك فزعت لأبي بكر وعمر ، كما فزعت لعثمان ؟ فقال : إن عثمان رجل حيي ، وإني خشيت إن أذنت له على تلك الحال ألا يبلغ إلي في حاجته » (٢) .

وإذا دخل عليه كريم قوم أكرمه ، وإذا دخل عليه سفيه أو شرير داراه بطلاقة الوجه ، أو بكلمة طيبة ـــ دون مداهنة أو مدح بالباطل ـــ تألفا له ، واتقاء لشره .

ويحدث معاذاً ببعض المبشرات على التوحيد ، ولا يأذن له بأن يبشر بها جمهور الناس مخافة أن يتكلوا (٣) .

وفي **البنـد الرابع** : نجـد ﷺ يكلف كل إنسان ، بمـا يقدر عليه ، وما يليق به ، وما يلائم حاله :

ففي حدث كحدث الهجرة إلى المدينة والاختفاء في غار حراء ، نراه ـــ عليه الصلاة والسلام ـــ يكلف عدداً من الأشخاص بعدد من المهمات المتنوعة ، كل فيما يناسبه ، فأبو بكر

(١) حديث رقم ٧٠٥٤ جـ ١٢ ، قال الشيخ أحمد شاكر : إسناده صحيح .
(٢) رواه مسلم عن سعيد بن العاصي : أن عائشة وعثمان حدثاه ... حديث ٢٤٠٢ .
(٣) صحيح البخاري ـــ باب من خص بالعلم قوماً . انظر الفتح جـ ١ / ٢٣٦ .

كُلِّف رفقته بعد تكليفه إعداد الرواحل ، وعليّ كُلِّف المبيت في مكانه ﷺ احتمالاً لأي خطر ؛ وأسماء بنت أبي بكر كُلفت ما يليق بها من حمل الطعام والأخبار إلى رفيقى الغار ، وعبد الله بن أبي بكر ، وعامر بن فهيرة كل منهما له دوره ، وهكذا . . . نجده ﷺ يولي خالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص على بعض السرايا الحربية ، على حين كُلف حسان بن ثابت أن يدافع عنه أمام هجاء الشعراء من قريش بسلاح الشعر ، الذي هو أشد عليهم من وقع الحسام في غبش الظلام ، ولم يجب أبا ذر إلى طلبه حين سأله أن يوليه ؛ لما يعرف من صرامته وحدة طبعه .

وفي **البند الخامس** : نجده ﷺ يقبل من بعض الأعراب الاقتصار على أداء الفرائض ، حتّى قال له بعضهم : والله لا أزيد على هذا ولا أنقص ، فقال : « أفلح إن صدق » وفي رواية : « من سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا » . على حين لم يقل ذلك لغيره من أصحابه المهاجرين والأنصار .

وهذا هو موقف المربيّ الحق ، والمعلم المرشد ، من طلابه وأصحابه أن يراعي ظروفهم وقدراتهم العامة والخاصة ، وأحوال كل فئة منهم ، بل كل واحد منهم ليعالجه بما يناسبه ؛ فلا يكلم الصغير بما يكلم به الكبير ، ولا يخاطب الفتاة بما يخاطب به الفتى ، ولا يعطي العوام ما يعطيه للخواص ، ولا يكلف الذكي ما يكلفه الغبي ، ولا يأمر البدوي بما يأمر به الحضري ، بل يعطي لكل متعلم على قدره وقدرته ، ومن العجز بل الإثم أن يبث المعلم كل ما عنده لكل من يجده ، دون تمييز بين من يفهم ، ومن لا يفهم ، وبين من ينتفع بما يسمع ومن يتضرر به .

وفي الحديث : « كفى بالمرء إثما أن يحدث بكل ما سمع » (١) .

وهذا ما حذر منه علماء الصحابة — رضوان الله عنهم — يقول علي : « حدثوا الناس بما يعرفون ، أتحبون أن يكذب الله ورسوله ؟ (٢) » .

---

(١) رواه مسلم في مقدمة الصحيح من حديث أبي هريرة .

(٢) رواه البخاري في الصحيح — كتاب العلم — باب من خص بالعلم قوماً دون قوم كراهة ألا يفهموا .

ويقول ابن مسعود : « ما أنت بمحدث قوما حديثا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة » (١) .

وليس هذا من كتمان العلم ، بل من حسن إنفاقه في محله وإعطائه لمن هو أهله ، ولكل مقام مقال ، ولكل علم رجال ! .

وقد ذكر الغزالي في إحيائه : أن من وظائف المعلم : أن يقتصر بالمتعلم على قدر فهمه ، فلا يلقى إليه مالا يبلغه عقله فينفره ، أو يخبط عليه عقله ؛ اقتداء بسيد البشر ﷺ ولا يبث إليه الحقيقة إلا إذا علم أنه يستقل بفهمها . وقد قال على – رضي الله عنه – وأشار إلى صدره : « إن هنا لعلوماً جمة ، لو وجدت لها حملة ! » فلا ينبغي أن يفشي العالم كل ما يعلم إلى كل أحد .

هذا إذا كان يفهمه المتعلم ولم يكن أهلاً للانتفاع به فكيف فيما لا يفهمه ؟ . . . ولذلك قيل : « كِلْ لِكُلِّ عبدٍ بمعيار عقله ، وَزِنْ له بميزان فهمه ، حتّى تسلم منه ، وينتفع بك ، وإلا وقع الإنكار لتفاوت المعيار » ! ! .

وقد قال تعالى :(**ولا تؤتوا السفهاء أموالكم**) تنبيهاً على أن حفظ العلم ممن يفسده ويضره أولى . وليس الظلم في إعطاء غير المستحق بأقل من الظلم في منع المستحق (٢) .

ويقول الغزالي أيضاً : أن المتعلم القاصر ينبغي أن يلقي إليه الجلي اللائق به ، ولا يذكر له أن وراء هذا تدقيقاً ، وهو يدخره عنه ، فإن ذلك يفتّر رغبته في الجلي ، ويشوش عليه قلبه ، ويوهم إليه البخل به عنه ، إذ يظن كل أحد أنه أهل لكل علم دقيق ! بل لا ينبغي أن يخاض مع العوام في حقائق العلوم الدقيقة ، بل يقتصر معهم على تعليم العبادات وتعليم الأمانة في الصناعات التي هم بصددها ، ويملأ قلوبهم من الرغبة والرهبة في الجنة والنار لما نطق به القرآن ، ولا يحرك عليهم شبهة ، فإنه ربما تعلق الشبهة بقلبه ويعسر عليه حلها فيشقى ويهلك (٣) . . . » .

---

(١) رواه مسلم .

(٢) الأحياء جـ ١ / ٥٧ ، ٥٨ .

(٣) الأحياء جـ ١ / ٥٨ .

والمقصود : أن المعلم طبيب يداوي القلوب والعقول بما يناسبها وليس كل دواء يصلح لكل داء .

٩ ــ الاعتــدال وعــدم الإمــلال :

ومن المباديء المرعية في التعليم والمقتبسة من هدى النبوة : الاقتصاد في التعليم والاعتدال في قدر ما يلقى من الموعظة والمعلومات في زمانه وفي نوعه، حتى لا يؤدي الإكثار إلى الإملال .

روى البخاري بسنده عن أبي وائل قال : كان عبد الله « يعني ابن مسعود » يذكر الناس في كل خميس ، فقال له رجل : يا أبا عبد الرحمن ، لو وددت أنك ذكرتنا كل يوم ؟ قال : أما إنه يمنعني من ذلك أني أكره أن أملكم . وإني أتخولكم « أي أتعهدكم » بالموعظة كما كان النبي ﷺ يتخولنا بها مخافة السآمة علينا (١) .

وروى البخاري أيضاً عن عكرمة : أن ابن عباس قال : « حدث الناس مرة في الجمعة ، فإن أبيت فمرتين ، فإن أكثرت فثلاثا . ولا تمل الناس هذا القرآن ، ولا ألفينك تأتي القوم وهم في حديث من أحاديثهم فتملهم ، ولكن أنصت ، فإذا أمروك فحدثهم وهم يشتهونه(٢) »

وكان ابن مسعود يقول : «إن للقلوب لنشاطاً وإقبالاً ، وإن لها تولية وادباراً ، فحدثوا الناس ما أقبلوا عليكم » (٣) .

وقال الحسن البصري : كان يقال : حدث القوم ما أقبلوا عليك بوجوههم فإذا التفتوا فاعلم أن لهم حاجات» (٤) .

ومعنى هذا : أن على المعلم ــ كما على الداعية والمحدث ــ أن يراعي الطاقة النفسية للناس ، فإن من يستمع أو يتعلم وهو كاره لا يستفيد مما يتلقاه ، فهو يسمع بأُذنه ولا يعي بقلبه . وكما أن للإنسان طاقة بدنية محدودة يجب أن تراعى فلا يحمل من الأثقال المادية مالا يطيق ، فكذلك طاقته النفسية .

---

(١) انظر البخاري مع الفتح جـ ١ / ١٧٣ . (٢) جمع الفوائد جـ ١ حديث ٢٣٥ .
(٣ ، ٤) سنن الدارمي جـ ١ / ٩٨ باب من كره أن يمل الناس .

وعلى هذا الأساس يجب أن توضع مناهج التعليم وتؤلف كتبه ، وتحدد مقرراته بحيث يقبل المتعلمون على العلم وهم نشيطون راغبون .

ومن حسن الطريقة في التعليم أن يدخل المعلم على درسه بعض المروحات عن النفس ، من الملح أو الطرائف أو الأشعار ، حتى لا تسأم النفوس وتمل القلوب .

وكان النبي ﷺ يمزح ولا يقول إلا حقاً وقد رويت عنه ألوان من الدعابة الحلوة التي تدخل على القلوب الأُنس بلا إسفاف ولا اسراف(١) .

وقال علي : اجمعوا هذه القلوب وابتغوا لها طرائف الحكمة فإنها تمل ، كما تمل الأبدان.

وعنه أيضاً : روحوا القلوب ساعة بعد ساعة فإن القلب إذا أكره عمي .

وقال أبو خالد الوالي : كنا « نجالس أصحاب النبي ﷺ فيتناشدون الأشعار ويتذكرون أيامهم في الجاهلية » .

وكان القاسم بن محمد – أحد فقهاء المدينة السبعة في عصر التابعين – إذا أكثروا عليه من المسائل قال : « إن لحديث العرب ، وحديث الناس نصيباً من الحديث ، فلا تكثروا علينا من هذا » .

وكان ابن شهاب الزهري يحدث ثم يقول : هاتوا من أشعاركم ، هاتوا من أحاديثكم ؛ فإن الأُذن مجّاجة والنفس حمضة .

وفي هذا اللون من ترويح الأنفس فائدتان :

الأولى : مطاردة السآمة ، وإزالة آثار ما يصيب البدن من كلل ، والنفس من ملل ، نتيجة مواصلة الدأب والتكرار اليومي الرتيب ، وهو ما أشار إليه الإمام علي فيما ذكرناه من قوله – رضي الله عنه – . وفيه يقول الشاعر :

والنفس تسأم إن تطاول جدها   فاكشف سآمة جدها بمزاح

والثانية : تنشيط النفس لمواصلة السعي إلى الجد ومعاناة البحث عن الحقيقة مهما تكن

(١) روت كتب السنة من ذلك أكثر من واقعة .

مشقة الطريق إليها ، وفي هذا قال أبو الدرداء : « إني لأستجم نفسي بالشيء من اللهو ليكون أقوى لهـا على الحق » .

ولـكن ينبغي هنـا مراعـاة أمرين :

الأول : ألا يكون في هذه الملح والطرف تجاوز أو إسفاف لا يليق بمجلس العلم وأهله ، فمجلس العلم ليس مسرحاً أو ملهى .

الثـاني : أن تكون بالقدر المناسب بحيث يكون الجد هو الأصل والقاعدة ، وهذه هي الاستثناء . فإن كل شيء إذا زاد عن حده انقلب إلى ضده ، حتى العبادة قد كره الغلو فيها ، فكيف بالمباح ؟ وكيف باللهو منه ؟

وفي هذا جاء عن علي – رضي الله عنه – قوله : « اعط الكلام من المزح بمقدار ما تعطي الطعام من الملح » .

١٠ – استغلال المواقف العملية للتربية والتوجيه :

ومن المباديء التربوية التي ورثتها لنا سنة نبينا ﷺ : استغلال المواقف الواقعية والتصرفات العملية التي تقتضي موقفاً تعليمياً معيناً ، وإلقاء توجيه تربوي خاص ، ليأخذ المتعلمون منه درساً إيجابياً لا ينسى ؛ لارتباطه بالواقع المشاهد ، وصلته بمناسبة لابسها الناس وعايشوها ، فبهذا ترسخ في الذهن وتثبت في القلب ، ولا تحتاج إلى تطويل أو تكرار .

وهكذا كان الرسول العظيم لا يدع فرصة من هذه الفرص – التي يتيحها القدر للناس في حياتهم – تمر دون أن يجعل منها درساً بليغاً ، وموعظة مؤثرة ، كثيراً ما تدمع منها العيون وتوجل القلوب .

ومن منا يجهل موقفه يوم أهم قريشا أمر المرأة المخزومية التي سرقت ، وعز عليهم أن تنفذ فيها عقوبة القطع ، التي أمر الله بها في كتابه للسارق وللسارقة جزاء بما كسبا ، نكالاً من الله .

ولجأوا إلى أسامة بن زيد – حب رسول الله وابن حبه – يشفعونه في هذا الأمر الخطير أن

يعفي المرأة من حد القطع ويقبل منها أي غرامة أو عقوبة أخرى ، ناسين أن العاطفة شيء وإقامة حد الله شيء آخر ، فكان لابد من درس مبدئي يثبت معنى المساواة في العقوبات ، كما هي ثابتة في كل التكاليف ، ويزيل أوهام الفوارق الطبقية بين الناس : أشراف وعامة ، ويعلن في قوة : أن شرع الله يسود الجميع ويحكم الجميع ، وكلمته هي العليا ، وكل كلمة عداه هي السفلى .

هنا جاء الدرس التربوي في حينه وفي موضعه ، فسمعته الأذان وفقهته العقول ووعته القلوب : « أتشفع في حد من حدود الله يا أسامة ؟ ! إنما أهلك من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها ! »

ومن نسى فلن ينسى موقفه ﷺ يوم مات ابنــه إبراهيم ، واتفق أن كسفت الشمس في نفس ذلك اليوم ، وكانت مناسبة ليقول قائلون : إنها كسفت لموت ابن رسول الله ! وكان مثل هذا الاعتقاد رائجاً في الجاهلية : انكساف الشمس أو القمر لموت عظيم من العظماء ولو كان ﷺ من أولئــك الذين يبنون لأنفسهم ولأسرهم عظمة زائفــة عن طــريق الدجل والمبالغات ، لسكت على هذا القول الذي يوافق ما كان معروفاً عند الناس ، ولكنه انتهز الفرصة ليصحح المفاهيم ، ويطارد الخرافة ، ويقرر الحقيقة العلمية الناصعة ، وقال في وضوح مؤمن وفي إيمان واضح : « أيها الناس إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله ، لا تنكسفان لموت أحدا ولا لحياته » .

وقدم يوماً إلى رسول الله ﷺ جماعة من عرب مضر ، فقراء بدت عليهم الفاقة والحاجة وتألم الرسول لما رآهم على هذه الحالة ، فدخل ثم خرج ، فأمر بلالاً فأذن وأقام فصلى ثم خطب يحث الناس على الصدقة على هؤلاء ولو بشق تمرة .

وهنا سبق بالفضل رجل من الأنصار بعد أن أمسك الناس ، وجاء بصرّة كادت كفه تعجز عنها ، بل قد عجزت ، وكانت بداية طيبة ، وأسوة حسنة . قال جرير راوي الحديث : « ثم تتابع الناس حتى رأيت كومين من طعام وثياب ، حتى رأيت وجــه رسول الله ﷺ يتهلل كأنه مذهبه « صحيفة منقشة بالذهب » ! .

وعندئذ كان المقام مناسباً للتنويه بمن يبدأ في عمل الخير فيقتدى الناس به فيه ، فقال رسول الله ﷺ : « من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده ، من غير أن ينقص من أجورهم شيء . . . الحديث » (١) .

وبهذا يرتبط العلم بالحياة ، ويتصل الدرس بالواقع ، ولا يعيش المعلم مع الكتب وحدها ، بعيداً عما تمر به الحياة من أحداث .

١١ - استخدام الوسائل المعينة :

ومن المبادىء التربوية الأصيلة في سنة الرسول المعلم : أن يستعين بكل وسيلة بصرية أو سمعية متاحة تساعد على إيضاح الحقيقة المقصودة .

ومن المعروف أن البيئة لم تكن تساعد على توفير هذه الوسائل ، والرسول ﷺ نفسه أمي لا يقرأ ولا يكتب ، ولكن الذي يهمنا هنا هو تقريره للمبدأ والفكرة أولاً ، وتطبيقها في الحدود المتاحة ثانياً .

وهنا نجد بعض الأمثلة البينة للدلالة على ما نقول .

يروي ابن مسعود - رضي الله عنه - فيقول :

« خط لنا رسول الله ﷺ خطاً بيده ، ثم قال : هذا سبيل الله مستقيماً ، وخط عن يمينه وشماله ثم قال : هذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه ثم قرأ :

(وأنّ هذا صِرَاطي مُستقيماً فاتَّبِعُوهُ ولا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُم عن سبيله) (٢)

فترى في هذا الحديث أن النبي ﷺ يفسر لأصحابه الوصية الأخيرة من الوصايا العشرة في سورة الأنعام ، ولكنه لم يقتصر على تفسيرها بالكلام المجرد بل استعمل لذلك ما هو ميسور له وهو الرمل يخط عليه بيده بدل اللوح ، وهو هنا يرسم صراط الله المذكور في الآية الكريمة في صورة خط مستقيم ولهذا قال : هذا سبيل الله مستقيماً ، ويرسم السبل الأخرى التي حذرت الآية من إتباعها في صورة خطوط متعرجة عن يمين الخط الأوسط

(١) رواه مسلم وابن ماجه والترمذي باختصار القصة - ترغيب - ٩٤ .
(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده كما في تفسير ابن كثير للآية في سورة الأنعام ج ٢ / ١٩٠ .

المستقيم وشماله ثم يشير إليها قائلاً : « هذه السبل ، ليس فيها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه» ثم يختم هذا التوضيح العملي بقراءة الآية الكريمة ، فتقع أعظم موقع في نفس السامع المشاهد وعقله ، فهنا اشتراك البصر مع السمع في استيعاب معنى الآية وفهم مراد الله تعالى منها .

وعن جابر – رضي الله عنه – أن رسول الله ﷺ مر بالسوق ، والناس كنفتيه – أي عن جانبيه – فمر بجدي أسك – أي صغير الأذن – ميت فتناوله بأذنه ثم قال : « أيكم يحب أن هذا له بدرهم ؟ فقالوا : ما نحب أنه لنا بشيء ، وما نصنع به ؟ قال : اتحبون أنه لكم ؟ قالوا : والله لو كان حياً لكان عيباً فيه ، لأنه أسك فكيف وهو ميت ؟ فقال : والله للدنيا أهون على الله عز وجل من هذا عليكم »(١) .

فانظر يا أخي القاريء كيف بين النبي ﷺ المفهوم الذي أراد إيصاله إلى أصحابه مستخدماً هذه الوسيلة العجيبة من الوسائل المعينة . إنها وسيلة لم يشترها ولم يصنعها ولم يتكلف أو يفتعل في الاستعانة بها ، إنها وسيلة يراها الناس ويمرون بها كثيراً ولكن النبي ﷺ أراد أن يتخذ منها أداة لتوضيح قيمة الدنيا التي يتهافت الناس ، بل يقتتلون عليها . إن هذا الدرس في تفاهة الدنيا عند الله بجوار الآخرة – لا يمكن أن يمحى من الذهن أو ينسى من الذاكرة لارتباطه بالجدي الأسك الميت ، وبمسلك النبي ﷺ وهو يتناول أذنه ويسألهم أيكم يحب أن هذا له بدرهم ؟ ويجيبون ويسألهم ،حتى يقرر لهم الحقيقة المرادة في النهاية « والله للدنيا أهون على الله من هذا عليكم . » !

وغير هذا كثير مما استخدمه النبي ﷺوسيلة إيضاح أو وسيلة معينة على غرس القيمة الدينية والخلقية أو العقلية التي يحرص على تعليمها .

ومن الأساليب المعينة على الفهم والاستيعاب ، المثبتة للمعنى المطلوب : أسلوب الإشارة الحسية التي يرتبط فيها المعقول بشيء ملموس .

وكان النبي ﷺ كثيراً ما يستخدم هذا الأسلوب ليتنبه الغافل ويتأكد المنتبه ومن أمثلة ذلك :

قوله في الحديث الذي رواه مسلم وغيره : « التقوى ههنا » وأشار إلى صدره ثلاث

(١) رواه مسلم – ترغيب – ٢٦٤٤ .

مرات . فهذه الإشارة إلى الصدر في بيان حقيقة التقوى ومحلها أبلغ كثيراً من قوله : التقوى محلها القلب ، فهذه كلمة قد تمر على الكثيرين دون أن يلقوا لها سمعاً ، أو يلقون إليها سمعاً ولكن لا يحضرون مع السمع قلباً .

ومثله حديث جابر : « بعثت أنا والساعة كهاتين ، وأشار بأصبعيه : السبابة والوسطى وفرق بينها ، فهذه الإشارة بأصبعيه في بيان قرب مبعثه من الساعة له من الوقع في النفس غير ما يقوله : بعثت قرب الساعة .

وكذلك حديث البخاري وغيره : « أناوكافل اليتيم في الجنة هكـــذا » وأشار بالسبابة والوسطى وفرج بينها » من حديث سهل بن سعيد .

فهذه الإشارة توضح المراد من الحديث الشريف بأكثر مما تعطيه عبارة معتادة مثل : كافل اليتيم قريب من الرسول في الجنة .

ومن ذلك حديثه لمعاذ بن جبل حين أوصاه بجملة وصايا ثم قال له : « ألا أدلك على ملاك ذلك كله ؟ قال : بلى . قال : كف عليك هذا وأشار إلى لسانه » (١) .

إن هذه الإشارة الحسية إلى اللسان تجعل معاذاً وكل من حضر هذا القول لا ينسى أهمية اللسان وآفاته ، التي تكب الناس في النار على مناخرهم .

وكل هذه الأمثلة بدت الإشارة فيها إلى جزء من كيان المعلم نفسه : صدراً أو يداً أو لساناً .

ولكن الإشارة لا تقتصر على هذا ، فقد يشير المعلم إلى شيء آخر يلفت النظر إليه ، ليتخذ منه وسيلة لتقرير مبدأ معين .

ومن ذلك إشارته إلى الرجلين اللذين مرا به في المجلس : أحدهما غني مشهور ، والآخر فقير مغمور ، فسألهم حين مر الأول : « ما تقولون في هذا » ؟

---

(١) الحديث رواه الترمذي وفي سنده كلام كثير وهو من الأحاديث الأربعين النووية .

١٢ - تخير أحسن الأساليب :

ومن أدب التعلم ومبادئه في السنة النبوية : تخير أفضل الطرائق وأرفق الأساليب ، وأقربها إلى عقل المتعلم وقلبه وأحسنها وقعاً في سمعه وبصره .

وذلك لتساعد المعلم على حسن توضيح ما يريد إعطاءه من العلم لتلاميذه ، وحسن تثبيته في أذهانهم وأنفسهم .

ومن درس السنة وعاش في كتب الحديث رأى من الأساليب التربوية واستخدام الوسائل المعينة ما يحسب جمهور المشتغلين بالتربية أنه شيء غريب عن تراث الإسلام .

فقد يستخدم - عليه الصلاة والسلام - الطريقة الإلقائية في خطبه العامة في الجمع والعيدين ونحوها . فهذا ما يقتضيه المقام .

ولكنه مع هذا لا يدعها تمر خطبة القائية بحته ، بل يطعمها بعناصر تعليمية خاصة تشد الأبصار وتجذب الانتباه وتدعو إلى التركيز .

وحسبنا أن نذكر هنا أشهر خطبه ﷺ هي خطبة حجة الوداع التي ألقاها في أكبر جمع حاشد عرفته جزيرة العرب في تلك العصور ، في يوم النحر بمنى .

فحين أراد أن يبين لهم حرمة الدماء والأعراض والأموال لم يسق هذا المبدأ الخطير مساقاً تقريرياً القائياً ، كما يفعل كثير من الخطباء في خطبهم ، والزعماء في بياناتهم .

وإنما بدأهم بالسؤال الذي يحرك الشوق ويثير الانتباه .

يروي أبو بكر أنه ﷺ قعد على بعيره - وأمسك إنسان بخطام البعير - ثم قال : « أي يوم هذا ؟ ... فسكتنا ، حتى ظننا أنه سيسميه سوى اسمه ، فقال اليس يوم النحر ؟ قلنا بلى . قال : فأي شهر هذا ؟ فسكتنا حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه ، فقال: أليس بذي الحجة ؟ قلنا : بلى ... ثم سألهم عن البلد أيضاً سكتوا ثم بين لهم أنه البلد الحرام ، ثم قال : إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا »(١).

(١) الحديث مشهور رواه الشيخان وغيرهما ، ورواه البخاري في أكثر من موضع من صحيحه . انظر الفتح ١ / ١٦٨ .

قال القرطبي في شرح مسلم : سؤاله ﷺ عن الثلاثة ، وسكوته بعد كل سؤال منها فإن كان لاستحضار فهو مهم وليقبلوا عليه بكليتهم وليستشعروا عظمة ما يخبرهم عنه ولذلك قال بعد هذا : « فإن دمائكم » ... الخ . مبالغة في بيان تحريم هذه الأشياء (١) .

ومناط التشبيه في قوله : «كحرمة يومكم هذا » وما بعده : ظهوره عند السامعين ، لأن اليوم والشهر والبلد كان ثابتاً في نفوسهم ، مقرراً عندهم بخلاف الدماء والأموال والأعراض وكانوا في الجاهلية يستبيحونها ، فبين لهم أن تحريم دم المسلم وماله وعرضه أعظم تحريماً من البلد والشهر واليوم (٢) .

والمقصود هنا أنه ﷺ لم يسرد خطبته سرداً ، ولم يلق بيانه القاءً رتيباً يثير الملل ويبعث على النوم ، بل حرك باسئلته العقول ، وأشرك المخاطبين معه فاشرأبت إليه الاعناق ، ورنت له الأبصار وأنصتت له الآذان ، وفي ختام خطبته يشهدهم على أدائه الأمانة وتبليغه الرسالة ، بنفس هذا الأسلوب : ألا هل بلغت ؟ . . . فتجاوبت معه الأصوات من كل جانب أن نعم قال : اللهم فاشهد ، فليبلغ الشاهد منكم الغائب .

ومن الأساليب الناجحة في التأثير والاقناع : التشبيه وضرب الأمثال ، بحيث يظهر المعقول في صورة المحسوس ، والغامض البعيد في صورة الواضح القريب .

والدارس للسنة يجدها حافلة بالعديد من التشبيهات والأمثال التي تمثل ذروة البلاغة البشرية وقمة الروعة الأدبية .

وفي « الجامع الصغير » للسيوطي فقط تجد اثنين وأربعين مثلاً ، وكل واحد منها وكإنما هو معلم يشرح ويوضح ويقرب .

يكفي أن أذكر نماذج قليلة منها :

« مثل الذي يعلم الناس الخير وينسى نفسه ، مثل الفتيلة : تضيء للناس وتحرق نفسها ! (٣)»

---

(١)،(٢) الفتح ١ / ١٦٨ .

(٣) رواه الطبراني والبزاز عى أبي برزة وهو ضعيف ورواه الطبراني عن جندب بإسناد حسن كما قال المنذري – الفيض – حـ ٥ / ٥١٠ .

« مثل المؤمن مثل النحلة : إن أكلت طيباً وإن وضعت طيباً ، وإن وقعت على عود لم تكسره » (١) .

« مثل المنافق كمثل الشاه العائرة ـ المترددة المتحيرة ـ بين الغنمين : تعير إلى هذه مرة وإلى هذه مرة لا تدري أيهما تتبع » (٢) .

« مثلي ومثلكم كمثل رجل أوقد ناراً فجعل الفراش والجنادب يقعن فيها ، وهو يـذبهن عنها . وأنا آخذ بحجزكم عن النار وأنتم تفلتون من يدي » (٣) .

ولم يذكر السيوطي في الجامع أمثالاً أخرى مشهورة منها ، ما في الصحيحين : « مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة ... الحديث » ومنها « مثلى ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتاً . . . الحديث » ولهذا سماه « الجامع الصغير » لأنه لم يقصد منه الاستيعاب .

ومن الأساليب المؤثرة في الأنفس والعقول كذلك : أسلوب القصة ولذا عني بها القرآن وقص علينا من أنباء الرسل ، وأخبار المؤمنين وصراعهم من أجل الكفر والطغيان ما يثبت الفؤاد ويدفع ريب المرتابين ويهدي الحائر .

وكذلك استخدم الرسول ﷺ القصة في تبيين قيم ومعاني معينة وتثبيتها مثل بيان أثر الإخلاص في نجاة الإنسان من المهالك كما في قصة الثلاثة أصحاب الغار ، ومثل بيان أثر الشكر في بقاء النعمة وكفر النعمة في زوالها كقصة الأعمى والأبرص والأقرع ، ومثل بيان عاقبة الرحمة ولو كانت لحيوان أعجم مثل الكلب كما في قصة الذي سقى كلباً يلهث من شدة العطش فشكر الله له ، فغفر له . إلى غير ذلك من القصص المنشورة في كتب الأحاديث وما أجدرها أن تجمع (٤) .

(١) رواه أحمد والبيهقي عن عبد الله بن عمرو . قال الهثمي : رجاله رجال الصحيح غير أبي سبرة وقد وثق . جـ ٥ / ٥١٤ .

(٢) رواه أحمد ومسلم عن ابن عمر – الفيض جـ ٥ / ٥١٥ .

(٣) رواه أحمد ومسلم عن جابر والبخاري باختلاف يسير – الفيض جـ ٥ / ٥١٨ .

(٤) حاول ذلك مشكوراً منذ عدة سنوات الشيخ الصالح محمد خليل الخطيب .

١٣ ـ أثار الانتباه بالسؤال والحوار :

ما أكثر ما استخدم الرسول المعلـــم الطريقة الاستنباطية لاستخراج الحقيقة العلمية المنشودة من أفواه المتعلمين أو على الأقل تفتيح أذهانهم لتلقيها بعد تشوق النفوس لها وتطلع العقول إلى معرفتها ، وذلك عن طريق طرح السؤال عليهم ليجيبوا عنه إن استطاعوا أو يسمعوا الإجابة الصحيحة منه ﷺ .

ذكر الإمام البخاري(١) في صحيحه باباً بعنوان « باب طرح الإمام المسألة على أصحابه ليختبر ما عندهم من العلم » وأخرج فيـــه حديث عبد الله بن عمر : « أن النبي ﷺ قال : إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها ـ أي لا في الشتاء ولا الصيف ـ وإنها مثل المسلم، حدثوني : ما هي ؟ قال : فوقع الناس في شجر البوادي . قال عبد الله : فوقع في نفس أنها النخلة ، ثم قالوا حدثنا : ما هي يا رسول الله ؟ قال : هي النخلة » .

فها هو ذا ـ عليه السلام ـ لم يلق عليهم هذه الحقيقة القاء تقريرياً : إن المسلم مثل النخلة . بل أراد أن يستثير دفائن ما عندهم ويلفتهم إلى ملاحظة ما حولهم ، ويشركهم معه في البحث وبهذا لا يصبح المتعلم مجرد جهاز تسجيل ينفعل ولا يفعل ، ويتلقى ولا يفكر بل هو كائن حي عاقل يبحث ويفكر ويحاور ويناقش ويخطئ ويصيب .

وذكر ابن كثير في تفسيره حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله ﷺ : « أي الخلق أعجب إليكم إيمـــاناً ؟ قالوا : الملائكة . قال : وما لهـــم لا يؤمنون وهم عند ربهم ؟ ! قالوا : فالنبيون . قال : وما لهم لا يؤمنون والوحي ينزل عليهم ؟ ! قالوا : فنحن . قال : ومالكم لا تؤمنون وأنا بين أظهركم ؟ !

قال : فقال رسول الله ﷺ : « ألا إن أعجب الخلق إلى إيمانا لقوم يأتون من بعدكم ، ويجدون صحفاً فيها كتاب يؤمنون بما فيها » (٢) .

فلم يذكر لهم الرسول ﷺ ما يريد بيانه لهـــم إلا بعد هذا الحوار الممتع ، وطرح

(١) انظر : البخاري مع الفتح جـ ١ / ١٥٦ .

(٢) عزاه ابن كثير إلى الحسن بن عرفة ، وفيه راو منكر الحديث ، ولـكن ذكر بطريق آخر عن عمرو مرفوعاً عند أبي يعلي وابن مردويه والحاكم وصححه مع أن فيه راوياً ضعيفاً : وروى نحوه أن أنس بن مالك مرفوعاً . تفسير ابن كثير جـ ١ / ٤٢ ط الحلبي .

السؤال ومناقشة الأجوبة حتى إذا تشوقت النفوس إلى معرفة الحقيقة جاءت على لسانه ﷺ ناصعة جليـــة .

ومما كان يستخدمه ﷺ للتشويق وإثارة الانتباه : أن يسألهم عن معـــاني بعض الألفاظ المعروفة معانيها عندهم فيجيبوه بما يعرفونه من معانيها المشتهرة بينهم ، فإذا فعلوا بادر إلى تفسيرها لهم بإعطائها المدلول الجديد الذي يريده ، وهو في الغالب مدلول مجازي قد لا يلتفتون إليه ولكنه عند النبي ﷺ أحق أن يفهم من اللفظ .

وذلك كقوله لأصحابه يوماً : « ما تعدون الصرعة فيكم ؟ قالوا : الذي لا تصرعه الرجال . قال : ليس ذلك ، ولكن الذي يملك نفسه عند الغضب » (١) .

ومثل ذلك قوله : « أتدرون من المفلس ؟ قالوا : المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع فقـــال : المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأتي قد شتم هذا ، وقذف هذا ، وأكل مـــال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا ، فيعطي هذا من حسناته ، وهذا من حسناته . فإن بقيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار » (٢) .

ونحو هذا أن يلقى إليهم عبارة يستنكر ظاهرها ليسألوا عن المراد منها فيأتي الجواب مصححاً المفهوم الخاطيء لهـــا ، فيتمكن المعنى من النفس فضل تمـــكن .

وفي هذا جاء الحديث الصحيح المشهور : « انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً » وكانت هذه كلمة متداولة في الجاهلية العربية أشبه بالمثل السائر دلالة على الانتصار للعصبية ودفاع كل امريء عن قومه ، على حق كانوا أو على باطل ، ولأجل هذا حين قال النبي ﷺ هذه الكلمة وقفوا منها موقف الدهشة والاستغراب ، فالإسلام قد جاء بالعدل المطلق **(ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين) (ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا)** وبريء من العصبية بكل ألوانها ، فكيف يقر الرسول الذي جاء بالهدى ودين الحق هذه الكلمة الجاهلية ؟ ولا عجب أن بادر الصحابة رضي الله عنهم بالسؤال والاستفهام قائلين : يا رسول الله ننصره مظلوماً ، فكيف ننصره ظالماً ؟ ! فقال ﷺ : « تمنعه من الظلم فذلك نصر له » (٣) .

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه عن ابن مسعود .

(٢) رواه مسلم والترمذي وغيرهما عن أبي هريرة – ترغيب ٤١١٢ .

(٣) رواه البخـــاري .

فهذا تعديل أساسي في مفهوم النصرة للأخ والقريب ، فإن إعانته على الظلم ، وتأييده في الباطل ، معناه : جره في الدنيا إلى الكوارث وفي الآخرة إلى النار . أما منعه من الظلم فهو إبعاد له عن الشيطان وتقريب له من الرحمن وزحزحة له عن النار ، وإدناء له من الجنة ، ولهذا كان هذا هو النصر الحقيقي له .

ولكن هذا المعنى الكبير لو ألقى لهم تقريراً ما استثار اليقظة الفكرية التي واجه بها الصحابة الكلمة المشهورة ، وجعلهم يعجبون من ظاهرها وينكرونه ويسألون عن المراد حتى يفهموا .

ويدخل في هذا الباب بعض العبارات التي كان يلقيها الرسول المعلم بصورة تشد الانتباه شداً ، كمثل قوله يوماً عند أصحابه : والله لا يؤمن . والله لا يؤمن . والله لا يؤمن » هكذا بصيغة القسم وبالتكرار الذي يفيد التأكيد ، أيضاً بضمير الغائب الذي لا يعود على مذكور أو أحد معروف ، فالفعل المنفي حتما لا يعرف من فاعله ، ولهذا قالت الصحابة حين سمعت هذه الجملة العجيبة المكررة : يا رسول الله لقد خاب وخسر ! من هذا ؟ فقال – عليه صلوات الله وسلامه – : من لا يأمن جاره بوائقه » (١) ألا ما أعظم الفرق بين تأثير هذه الجملة : لا يؤمن من لا يأمن جاره بوائقه . حين تذكر جملة تقريرية خبرية كالمعتاد وبين تأثيرها حين ذكرت بالصورة التي ذكرها النبي عليه الصلاة والسلام .

والمهم بعد ذلك كله : أن يكون المعلم مؤمناً بمهنته ، محباً لرسالة العلم ، راغباً في الارتقاء بتلاميذه ، شاعراً بأبوته لهم وبنوتهم له ، حريصاً على أن يبلغ ما في نفوسهم وأن يبلغهم ما في نفسه ، متفننا في بيان ذلك بكل طريقة ميسورة ولو بالكلمة ، بشرط أن تكون مبينة مشرقة .

وكذلك كان ﷺ حريصاً كل الحرص على أن يبين عما في نفسه أبلغ الإبانة وأن يفهم عنه ما يريد ، ولا يدع سامعه حتى يفهم عنه .

أعان على ذلك أسلوبه البليغ في القول ، الذي بلغ قمة البيان البشري في إصابة المعنى وحسن التعبير وموافقة المقال للمقام ، كما أعانه طريقته الحسنة في الأداء التي تختلف من شخص لآخر ومن ظرف إلى ظرف .

---

(١) رواه البخاري من حديث شريح الكعبي – ترغيب – حديث ٣٦٨٨ .

عن عائشة رضي الله عنها قالت : « كان كلام رسول الله ﷺ كلاماً فاصلاً يفهمه كل من يسمعه » (١) .

وعن أنس أن النبي ﷺ كان إذا تكلم بكلمة أعادها ثـلاثا حتى تفهم عنـه » (٢) وكان أصحابه الذين تلقوا عنه واقتبسوا من مشكاته يسيرون على هديه في تعليم الخلق وهدايتهم إلى الحق ، والافتنان في الأساليب التي تعينهم على الوفاء بما يقصدون من إنارة الألباب وتزكية الأنفس .

واكتفى بهذه الصورة الحية من صور التعليم الذكي أبدعها فكر الصحابي المفترى عليه أبي هريرة رضي الله عنه .

فعن أبي هريرة : أنه مر بسوق المدينة فوقف عليها فقال : « يا أهل السوق ما أعجزكم ! قالوا : وما ذاك يا أبا هريرة ؟ قال : ذاك ميراث رسول الله ﷺ يقسم وأنتم ههنا ؟ألا تذهبون فتأخذون نصيبكم منه ؟ قالوا : واين هو يا أبا هريرة ؟ قال : في المسجد ، فخرجوا سراعاً ووقف أبو هريرة لهـم حتى رجعوا ، فقال لهم : مالكم ؟ فقالوا : يا أبا هريرة قد أتينا المسجد فدخلنا فيه فلم نر فيه شيئاً يقسم . فقال لهم : وما رأيتم في المسجد أحدا ؟ قالوا : بلى . رأينا قوماً يصلون وقوماً يقرأون القرآن ، وقوماً يتذاكرون الحلال والحرام ، فقال لهم ويحكم ! فذاك ميراث محمد عليه الصلاة والسلام » (٣) .

(١) رواه أبو داود ٤٨٣٩ .

(٢) رواه البخـاري .

(٣) رواه الطبراني بإسناد حسن – ترغيب حديث ١٣٨ .